

حياة المسيح

في التاريخ وكشوف العصر الحديث

طبعة منقحة ومزودة

تأليف

عباس محمود العقاد



المسؤول: حياة المسبح في التاريخ وكشوف العصر الحديث.

المؤلف: عباس محمود العقاد.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: إبريل 2005م.

رقم الإيداع: 2003/ 20692

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2538-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش. أحمد عرابي - الهندسين - الجيزة
ت: 34466434 - 3472864 (02) فاكس: 3442576 (02) هـ: 21 إيلياء
البريد الإلكتروني لإدارة الخدمة كشر: publishing@nahdetnaissr.com

الطبع: 80 النسخة المتأهية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8339287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8339296 (02)
البريد الإلكتروني للطبع: press@nahdetnaissr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 11 ش. كامل صدقي - الفيالة -
القبارة - هـ: ب: 96 الفيالة - القبارة.
ت: 5908827 (06) - 5904896 (01) - فاكس: 5903384 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم الجاني: 08002236222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetnaissr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 406 طريق الحرية (رشمدي)
ت: 5230509 (03)
مركز التوزيع بالقاهرة: 47 شارع عيد السلام - مارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetnaissr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الأسعار عبر موقع البيع

www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

مقدمة

من رغباتى التى كنت أرددها فى نفسى كلما راجعت أسماء الكتب التى أترقب الفراغ لتأليفها - أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلت فى رسالات أكبر دعائها فى العالم الإنسانى: إبراهيم الخليل وأبنائه، والكليم، والمسيح، ومحمد عليهم السلام.

هذه الظاهرة الإلهية - دعوة النبوة - ظاهرة فريدة فى العالم الإنسانى لم تظهر بين الأمم فى غير السلالة السامية، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوات فى هذه الأمم.

وسببها من جانبها التاريخى فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة بين الديانات، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل، لأنها بيئة وسطى بين الحضارة والبادية، وكذلك كانت أور، وبعليك، وبيت المقدس، ومكة، ويثرب، ومدين، ومحلات الطريق فى جنوب فلسطين وشمال الحجاز. وهى بيئات لا إلى حضارة المدن التى تعول فى تشريع الحقوق على نظام الدولة، ولا إلى بداوة الصحراء التى تعول فى تشريع الحقوق على سنة الثأر والغلبة، ولكنها - مدن القوافل - وسط بين الجانبين، مع حاجتها إلى تقرير الحقوق فى كل لحظة، لدوام المعاملات واشتباكها، ولكثرة الطارقين ذهاباً وإياباً، ممن يجدون المال، ويبحثون عن المتعة العارضة، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه فى سوق الأخذ والعطاء، وحلبة الخداع والادعاء.

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدراً للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية، وغير مصدر النقمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب والعادى والمعتدى عليه، وذلك هو مصدر الهداية النبوية فى بيئة وسطى، تهيأت لها حماسة النفوس فى البادية، وشعور النفوس بقيمة العهد ورياط الأمانة فى كل علاقة واسعة، كالعلاقة التى ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة.

ومما وفقت إليه، مغتبطاً بهذا التوفيق، أننى اهتديت إلى حكمة هذه الظاهرة فى سيرة الخليل إبراهيم، وسيرة محمد والمسيح عليهم السلام، وكل هذه السير ظهر فى حينه، فظهر من استقبال العالم له، أنه لم يكن رغبة من رغباتى القوية

وحسب، بل كان على التعميم رغبة قوية لقراء العربية في مختلف الأراء والنحل، لا نحسبها برزت في استقبال كتاب حديث، كما برزت في استقبال هذه الكتب الثلاثة، مما ألقناه خلال السنوات الأخيرة.

وكان من الواجب أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدهمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية، التي تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية، أملاً في الوقوف على جديد يضاف إلى تاريخ الداعي أو تاريخ الدعوة، أو توقعاً لتوكيد شيء من القديم يحتاج إلى توكيد أو إلى تعقيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشجرة المباركة

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ يُنْشِئُ الشَّجَرَةَ فِيهَا يُنْشِئُ الْفَاكِهَ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(سورة النور ٣٥)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُمُ الزَّيْتُونُ وَالرُّمَّانُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلٌّ مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآوَاكُهُمْ وَأَوْحَاشُهُمْ وَحَصَادُهُمْ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (سورة الأنعام ١٤١)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١﴾ يُبْدِي لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل ١٠، ١١)

﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة التين ١-٣)

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿١﴾ أَفَأَصْبَحْنَا عَالِيَةً ﴿٢﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٣﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٤﴾ وَعَبَقًا وَقَضْبًا ﴿٥﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٦﴾ وَحَدَادٍ وَاعْلَابًا ﴿٧﴾ ﴾ (سورة عبس ٢٤-٣٠)

هذه هي الشجرة المباركة في التنزيل: شجرة الزيتون • شجرة البحر الخالد،
شجرة الحوض الذي نبتت عليه حضارة الإنسان ودارت حوله، ولا تزال تدور.
عالية تعلو خمس قامات وتزداد.

باقية تبقى خمسة قرون، ثم لا تصير إلى نفاذ.

كريمة تؤتي من ثمراتها ما تشتهيهِ الأنفس وتشتهي به طيب الطعام، سعيدة
تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب وجبائر العظام، ومن خشبها
صور المحارب وأعواد المناير، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات اليشائر،
وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيئها طلباً لقوة النفس وقوة
الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتشابه بركتها عليهم كرة أخرى
فهم يعلفون السلم، ويرفعون غصن الزيتون !

بوركت في وحى المعابد والضمائر، وبوركت في رموز القرائح والخواطر. فلم
يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها، ولم يذكروا نعمة لا
يذكرونها بنعمائها: رمزوا بها إلى الضياء، ورمزوا بها إلى السلام، ورمزوا بها
إلى الخير والرخاء، وتزودوا منها في البادية والحاضرة، وادخروها للدنيا
والآخرة، واتخذوها للمصاييح في محارب الصلابة والتسبيح، ورجعوا إليها
باسم من أقدس الأسماء، هو اسم «السيد المسيح».

لأمر ما نبتت في فلسطين، وانتشرت منها في منابت العالمين، وعلى نحو من
هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين، فطافت رسالته حيث طافت، من عيين إلى
غايته من البلاغ المبين.

ولو لم تكن «المزيتونة» إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها وبركتها،
لاستحقت به الخلد المصون، خضراء على مدى السنين والقرون.

● الباب الأول ●

كشوف وادى القمران
وتفسيرات من فلسفة
التاريخ

فى وادى القمران

يقال فى بعض التعبيرات المجازية أن حادثاً من الحوادث وقع فى طالع هذا البرج أو ذاك من بروج الفلك المشهورة. فإذا جاز لنا أن نستعير هذا التعبير، قلنا إن السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها فى أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح. فإن اللقائف المطوية التى كشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية، وأمامى الساعة ثبت موجز مضموم إلى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة، ليس فيه من شىء غير أسماء الكتب والرسائل التى ظهرت فى موضوع تلك اللقائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧.... وهذا عدا الكتب والرسائل التى ألفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع، ممن لم يقصدوا إلى التحقيق على تلك الكشف، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح.

واتفق أن اللقائف كشفت، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها، فى مطلع سنة ١٩٤٧، لأنها كشفت بوادى القمران من شرق الأردن، وتفاقمت يومئذ مشكلة فلسطين، فحالت دون البحث الهادئ والتنقيب المأمون فى ذلك الجوار، ولم يتصل خبر تلك الكشف الهامة بشىء من التفصيل أو البيان المفهوم، إلا بعد استئناف البحث فيها والاشتغال بدراسة حوالى السنة التى ألفت فيها كتابى هذا وهى سنة ١٩٥٢.

فلما علمت بنبأ هذه اللقائف فى وادى القمران، توقفت عن إعادة طبع الكتاب قبل أن تنتهى لى فرصة كافية للاطلاع على مضامين اللقائف والاستفادة مما عسى أن تسفر عنه من دلائل التاريخ المجهول، وفيها، كما قيل يومئذ، كتاب كامل من العهد القديم، وتعليقات على كتب أخرى، ودفتر وافٍ بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك، بين زمرة دينية تشبه الزمرة المسيحية الأولى فى الشعائر والعبادات.

ولم يكن هذا التوقف عن البت في الموضوع المرتهن بنتيجة الاطلاع على لفائف وادي القمران ليشتينى لزماً عن متابعة البحث في أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل إبراهيم وعهد موسى الكليم. فإن البحث في هذه الأسرار على عهد الخليل، يبتدئ بنا من البداية الأولى، ويقترب بنا من مطالعها أو ينايئها التي تقدمت قبل جميع اليناابيع، ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهداً من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضاً قد يتصل من كتب بتاريخ اللفائف بوادي القمران، إذا كان منها، كما قيل، لفائف تتضمن كتباً من التوراة، وقطعاً من الكتب الخمسة المشهورة باسم الكتب الموسوية، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملاً يساور العلماء الحفرين واللاهوتيين، ففضلت من أجل هذا أن أرجئ الكتابة عن موسى عليه السلام مبتدئاً بالكتابة عن الخليل إبراهيم، وسميت كتابي عنه «بأبى الأنبياء» وانتهيت فعلاً من البحث في تفاصيله إلى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل والبيئة الصالحة لتلقي الرسالة النبوية، إذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى في زمانه، وكان انتقاله من «أور» إلى جوار بعلبك وبيت المقدس ومدن الطريق بين سيناء والحجاز، سلسلة من الشواهد البارزة، تلفت النظر إلى هذه الحقيقة، وتجعلها على صورها المتقاربة أتم جلاء.

أما الموضوع الذي توقفت عن المضى فيه ريثما تستقصيني موارد الجديدة فقد كان يتوقف حوالى سنة ١٩٥٢ على مصادر ثلاثة: أهمها لفائف وادي القمران، ومنها تراجم العهدين القديم والجديد المنقحة في اللغات الغربية، ومنها سيل لم يكن ينقطع في تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظر العصرية بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد كنا نقرأ في الصحف والنشرات أن لفائف وادي القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب أشعيا، ونسخة مقروعة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوءات حبقوق التي حققتها الحوادث التالية، وشذرات من تفسير كتاب ميخا، وقصة تسمى قصة الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة، ونسخة أرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة، وقصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم، ونسخة مفصلة لأداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمناً بصومعة وادي القمران، وكلها مودعة في جرار كبيرة يوجد الكثير منها في بعض الكهوف المجاورة، ويبدو من

أجل ذلك أنها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل، لا تقدر عند العلماء الحفريين وعلماء المقابلة بين الأديان وجمهرة اللاهوتيين على الإجمال.

ولو أن أحداً أراد أن يحيط بأطراف الكتب والرسائل التي تناولت مسائل البحث في تلك اللغائف خلال هذه السنوات الخمس، لما استوعبها جميعاً، ولو قرغ لها كل وقته، وحسب القارئ العربي أن يعلم أنها بحثت من كل ناحية تشترك في موضوعاتها الدينية أو اللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية، ولم تزل منها لغة من لغات الحضارة الغربية. فقد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة، واختلاط اللهجات واللغات، ومواد الورق والجلد والمداد واللصق والتجفيف، كما تناولت أسماء الأعلام وما إليها من الألقاب والصفات وما يقتدرن بها من تواريخ الشعوب والقبائل، ومواقع الأرض وعوارض الجو والفلك وأصول العقائد وشعائر العبادات في كل فترة على حسب حظها من الأصالة أو الاستعارة، وعلى حسب المصطلحات التي تلازمها ولا تعهد في غيرها، واتسع نطاق البحث إلى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء، وصناعة الأنية الفخارية، وعادات الأكل والشراب، وأزياء النساء، ومواد الأطعمة، وثمرات النبات، وتراوحت تقديرات الزمن بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد، ولم تستقر بعد كل هذا التوسع وكل هذا الإسعان والتبقيق على قرار وثيق.

ومن البديهي أننا لم نستوعب هذا الطوفان الزاخر من الفروض والنقائض، وعلى كل ما في هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدل، ومواضع التشكيك والترجيح، بل نحن لم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كي نخلص منه إلى القول الجديد في تاريخ السيد المسيح، ولكننا عمدنا إلى نخبة من كتب الثقات التي ألفت برعوس المسائل، ولخصت محور الخلاف ومبلغه من الدلالة في كل مسألة منها، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعيننا، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد في الأمر لا يزال من عمل السيد المسيح أو من فتوحه المبتكرة في عالم الروح، وأن كل مشابهة بينه عليه السلام، وبين مذاهب الدين قبل عصره، تنتهي عند الظواهر والأشكال، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت إليه عقائد الدين على يديه.

ولعل أرجح الأقوال التي خلصت إليها أكثر البحوث والمناقشات، أن نساك صومعة القمران كانوا زمرة من «الآسينيين» إحدى الطوائف المتشددة في

وعانيتها للأحكام السنية، وانتطرها لنخلص القريب بظهور المسيح الموعود، وهذه هي الطنفة التي ذكرناها في «عقريّة المسيح»، فقلنا عنها ما فحواه أنها أقرب الطوائف الإسرائيلية إلى التطهر من أدراخ المصامع وأشبهوات، وأنهم «كثروا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات..» وأن أحدهم يقسم مرة واحدة بين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم باحق أو بالباطل مدى الحياة، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة... والمادة عندهم مصدر الشر كله، ولسرور بها سرور بالندس والحياة. وكانوا يتأخرون ويمتطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم. وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معقدون أن الخلاص يمتد روحاني يهدي لشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح. ثم قلنا عنهم في سياق الكلام على زمرة المنتطسين بمصر Therapeuts، هؤلاء المنتطسين ربما كانوا أساتذة النفسات اليهود المسمين بالأسين أو الأسبيين على قول بعض المؤرخين، لأننا رجحنا أن الاسم مأخوذ من كلمة الأسى بمعنى الصديق وهي تعادل كلمة الثيرابيين اليونانية بمعنى المنتطسين.

فإذا صح أن زمرة وأدى العمران كانت تسمى إلى لاسين، وصح أكثر من ذلك أن صومعتهم كانت هي البرية التي كان يولد بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان. فالجديد في هذا الكشف هو تأكيد الحاجة إلى رسالة السيد المسيح، أو تأكيد فضل الدعوة المسيحية في إصلاح عقائد لقوم كما وجدتها على أرقاها وأبغها من أتعاع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد.

فالكتب الأسبسية أو الأسية التي وجدت في الصومعة تصف لنا نظم الجماعة وأدب سلوكها وشدة حرصها على لشعائر المروثة بين قومها، ولكنها لا تزال مصابة بداء القوم الذي انتهى إلى عانة مداه في تلك الفترة، وهو داء الجمود على البصوص والحروف، والانصراف عن حوهر العقيدة ولباب الإيمان، ولا تزال النحلة الأسبسية نفسها أدل على الحاجة إلى الإصلاح من النحل لمتهمة أو المحاطة بالشبهات، لأن النحلة المتهمة تجد إصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القممة، وكل نحلة يهودية رائجة عن سوائها تصد من يقومها من كبار في ماسقامتها في نطاق الديانة اليهودية، ولكن الحاجة إلى الإصلاح بما تثبت كل الثبوت إذا بلغت النحلة أرقى ما تسعه واستنفدت كل طاقتها تهدياً وتطهيراً وإحلاصاً وتذكيراً، ولم تزال بعد ذلك قصورها عن برويد الروح بما تتعطلش له وتفتقر إليه. وكذلك كانت النحلة الأسبسية التي كشفت عنها لفائف

وأدى القمران، أن كان اسمها، وأبة كانت وجهها، فإن لم تمهد لرسالة السيد المسيح إلا كما يمهد المريض للعلاج أو يمهد الداء للدواء، ولا شك أن الفائق المكشوفة نخيرة بفعلة هي بأنها، ولكنها لا تضيق إلى معلوماتنا عن حقائق الرسالة المسيحية، ولا تخرجت شيء جديد في أمر هذه الرسالة، غير أنها تؤكد لما فضلها ولزومها في وُنه، فمهما يكن من غرض النحلة الأسبوعية، فهي هي أصولها وفروعها بقية محافظه على بواقيها متشدة هي محافظتها، نظرة إلى أمسيها حتى في النطق إلى الغد امرجوا انتظراً للمخلص الموعود على حسب التنبؤات العنصرية، وهذه الآفة الويية أمة التشديد في عبادة المراسم والنصوص كدنت الدعوة المسيحية رسالة لازمة يعلم الناس ما هم في حاجة إلى ان ينعموه كلما عرقوا في نحه راكده من الحروف اميية والأشكال المنحجرة، تعلمهم أن العفيدة مسئلة فكرة وضمير لا مسئلة حروف وأشكال وهذه هي رسالة السيد المسيح في ذلك العصر النبوء بصموده وريانه على اسبواء، لأن الرياء إنما هو في بطنه جمود على وجهه طلاء.

تفسيرات من فلسفة التاريخ

ويستطرد من تلخيص بيعة للعنف المكشوفة إلى تلخيص بيعة المناقشة -
أو المناقشات الطويلة - حول الترجمة لمفحة في العهد الإنجيلي لكتابي العهد
القديم والعهد الجديد.

إبنا سمعنا بنياً هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنياً للعنف المكشوفة،
وكنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة في كتاب أشعيا في العهد
القديم، فاعتقدنا أن المشتغلين بتقحيح الترجمة رجعوا إلى نص حديد في العنف
وأدى القصران لأن كتاب أشعيا هو الكتاب الكامل لدى اشتدعت عليه تلك
العنف فيم شملت عليه من الآثار المتفرقة. ولكننا تلغيت البيان اواقى عن
عمل المتقحيين، فلم نجد فيه ما يشير إلى علفه بين الكشوف الجديدة وبين تقحيح
الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص، لأن الفقرة التي جاءت
في كتاب أشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التقحيح ومعارضيه لم
تفاجئ علماء اللاهوت برأى لم يعلموه من قبل، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من
الطرفين المتقبيين.

ثارت انصجة حول فقرة في لإصحاح السابع مدرجمة في اللغة العربية
بالكلمات الانية «... يعطيك السيد نفسه إية ها العذراء تحمر وتلد ابناً
وتدعو اسمه عمانوئيل».

فهذه الفقرة تظهر في الترجمة الإنجليزية المنقحة بعبارة «امرأة شابة» في
مقابلة كلمة «علامة» عبرية، وكلمة Parenthos «برشوس» هي لترجمة
السبعينية، ولا جديد أيضاً في هذا الخلاف لأنه خلاف لم ينقطع بين المذاهب
الثلاثة التي يدور بحثها على تفسير المقصود بنقولة السيدة مريم أم المسيح عليه
السلام فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالنقولة الدائمة قبل ميلاد
المسيح ويعدده ومنهم من يقول بالنقولة قبل ميلاده. ثم ولادة إهوة له بعد ذلك
وربت الإشارة إليهم في كتب العهد الجديد، ومنهم من يرجع إلى البصوص
العبرية ولا يذكر كلمة النقول كما تقدم - وجواب القائلين بالنقولة الدائمة على
استشهادين يذكر إهوة السيد المسيح في كتب العهد الجديد أنهم أبناء عمومه

أو أنهم إخوة متساويون إلى يوسف حطيب السيدة مريم، إلى آخر ما ورد في هذا الخلاف القديم الجديد.

ولقد كان أمامنا تفصيل هذا الخلاف عند كتابة «حياة المسيح» فلم نعرض له، ولم نعرض لنبحث من البحوث في هذا الصدد، إلا ما كانت له صلة لا هناك بها برسالة السيد المسيح في عالم إلهديه الروحية، ولهذا لم نذكر معنى كلمة «أخي الرب» التي شفعت باسم «جيمس» المقابل لاسم يعقوب في لترجمة العربية، وقلنا عنه إنه «جيمس قريب السيد المسيح».

وقد حطر لبعض الساعدين أن سميناها كذلك لأنها لم تصلح على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد، وأنه لئن يستسهله من يستسهل النقد بمير روية، ويحسبه بعيداً كبعد المستحيل من نعم من قراءة «حياة المسيح» أنها على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة لنبعث فيها عما بحثناه، ونقل منها ما نقلناه... ما لأن تعرض لمناسبة التي نذكر فيها سبب تلك الإشارة على علائها، بون أن يبدى رأياً في تصحيح كلمة جيمس من كلمة يعقوب، وبون أن نقرر في الإشارة العبارة حكماً فاصلاً لا موضع له من هذه التفصيلات

وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة، وضجة اللغات المستخرجة من ودي القمران، مع تكرار الكلام عن كتاب أشعيا في كتاب الصلوات هو الذي أوحى إلينا أن ينتظر ما وراء ضجة الترجمة كم أوحى إلينا أن ينتظر ما وراء ضجة اللغات المكتشفة، فقد يكون هناك من البصيص والأسبند ما يوجب إعادة اسطر في كتابه «حياة المسيح» ولولا هذا التقدير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجباً للانتظار إلى ما بعد فراغ القول منه، إذ كانت أوجه الخلاف جميعاً في هذه المسألة معروفة من زمن قديم، وكانت من المسائل التي كان في وسعنا أن نتجنبها في مصابرها قبل الكتابة عن السيد المسيح.

إلا أننا نسل الآن بعد خمس سنوات هل كان مما يربح الضمير أن نمضي في إصدار الكتب مرة أخرى قبل أن نطلع على الكتب الجديدة التي كانت تتعقد في اللغات الغربية كتاباً بعد كتاب عن السيد المسيح ورسائله، وبظراب المحدثين إلى هذه الرسالة في زمانها وهما أعقبه من الأرمنه.

إننا نمهدنا قبل خمس سنوات في إصدار الطبعة الحاضرة لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود إلى أسباب توجب المراجعة وإعادة النظر، ولكننا سنأل اليوم ترى لو أننا علمنا يومئذ محور الضجة على الترجمة، وعلمنا أنها

موضوع محاد في قصصية معروفة - من كما يستحق من أجل ذلك بالهيص
المتفق من الكتب و لرسائل التي كتبها أصحابها في موضوع كموضوعنا، ومن
وجهه نظر بعين، أن كان شأنها من الموافقة، أو المخالفة لوجهه نظراً

بحسب أن اشتعالنا بالاصلاح على طائفة من تلك الكتب كان سبباً كافياً
لتعليق النظر على نصدر الكتب على الأقل مطمئنين إلى عاقبة هذه الأناة فإن
غير الاطلاع على الكتب الجديدة اراعنا في موضع من مواضع الكتاب فتلك
فائدة جديدة بالاسطر، وإن أطلعنا على الكتب الجديدة ولم تتغير نظرتنا فتلك
طمأنينة نحمدها، وما صيغنا شيئاً بهذه الأناة.

وأسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة، أن الاطلاع عليها كان متعة من متع
القرء، برصينا قدرئين قبل أن ترضي مؤلفين، وقد كان فيها السمين والعت،
والمنعوق والمنحلف، كما يكون في كل تأليف، ولكن خفاء أن نحمد خطبا ما
استوفياه منها، لأن العث منها كان من قبل المقروءات التي تنكشف عثاتها
للمتصفح بعد الإلام بسطور هنا وسطور هناك. وأما السمين منها فقد كان
كفياً في موضوعه، كما كان مكفئاً لما يفقه القارئ من الوقت والجهد فيه.

ونستطيع أن نسلك هذه الكتب القيمة في بابين واسعين. باب التأمل وما إليه
من النظر الفلسفي والخواطر الوجدانية، وباب النقد التاريخي والتحليل العمي
على قواعد المقابلة بين الأديان.

ويلد القارئ ولا ريب أن يعلم رأي الفسوف المصري في المقابلة بين تعاليم
المسيح وتعاليم نيتشه هي العصر الحاضر أو يعلم رأيه في المقابلة بين تعاليم
المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين، أو يعلم وجوه التشابه ووجوه
المناقضة بين خطة المسيح في الإصلاح لإنساني وخطط الساسة ودعاة
الاجتماع في القرون الحديثة، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن
بكلمات السقاء من اصحاب الكلم الجامع والحكمة المشورة - هذه وأشباهها
هي مدار القول في كثير من تلك الكتب العصرية يتفق أحياناً أن تدل عناوينها
على اعراضها، ولكننا لا نعتقد أنها مما يقتضيها البحث في كتابنا هذا أن
تبسطها أو نطويها موحدين. - وقصاري ما يقوه عنها أنها أشبه بالصور
المتعددة لوجه الواحد هي ألوجات كثيرة، ليست محل تلخيص ولكنها محل
استزادة لمن شاء

أما الكتب التي نذكرها في باب النقد التاريخي والتحليل العمي ففيها حقاً
ما يهتم به الباحث في تاريخ الرسالة المسيحية ومنها - ولا مرأ - بحوث

جديرة بطول التأمل وإنعم النظر وموجهة الموضوع كله هي نقطة الواسع من جميع جهاته، وليس هي استطاعة أحد أن يواحه هذا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد به بكل عتقه من المراجع والأسانيد.

ومن الإصالة على غير مدلل أن يسرد هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين في هذه البحوث القديمة. فبدأ بعد ما وقفنا عليه فيها - يرى أن الفارسي لا يفوته شيء من جوهرها إذا اطلع عليها على كتابين اثنين يحويان حملة المناقضات والأقويل التي مدعوى للقبول أو الرفض في هذه البحوث. وتسمى بها كتاب «الجانب الآخر من لقصة» تأليف روبرت فيرنو وكتاب⁽¹⁾ «إنجيل الناصري يعاد» تأليف روبرت جريفس وجوشيا برنو وكلتا الكتابين مؤلف باللغة الإنجليزية.

وندع التلميحات الملفة التي تتخلل الكتابين. وينبغي أن نذكر بداية أنها تخمينات كثيرة، وأنها هي بعض الأحاديث تخمينات معتسفة يعترف المؤلفون باضطرابهم إليها لإتمام الحلقات المفقودة في السلسلة التي سبكوها من بقايا الأسانيد المختلفة منذ القرن الأول للميلاد ومن صنع حيالهم في مواضع النقص المعروضة في عجوات تلك الأسانيد، ولا ننسى أن أحد المؤلفين - روبرت جريفس - قصاص يعتمد على التصور الفني في التوفيق بين الاحتمال وتنسيق الملامح وملاحظة التماسك بين الروايات الشخصية وله قصة هي الموضوع نفسه سماها «عيسى الملك» يشرح فيها بالأسلوب الروائي مطرته التاريخية عن مسرة السيد المسيح، ويريدنا أن لسيد المسيح قد شأ برعاية هيئة بصبية كانت تعمل لتعجل لخلص على يد الملك «المسيح» الذي يأتي من ذرية داود لإنقاذ شعب الله المختار، وأن يوحنا المعمدان هو الذي وكل إليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة في النبوءات، فأجباره وعنده وسيع «ملكاً» مسيحياً أي ممسوحاً بالرب المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين، وأن زعماء الهيكل لم يكونوا جميعاً من المطيعين على سر هذه المباحة التي جمعت بين يمين لإيمان ويمين الصاعه، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل في وقت واحد، ثم جرت الحوادث محرراً الذي نعلمه من

(1) The Otherside of the Story by Rupert Furneaux

(2) The Nazarene Gospel Restored by Graves and podra

الأناجيل مريداً عليها هذا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر والتاريخ العاطف كما جمعه المؤلف من أسبديه ومن وحى خياله أو تنسيق فيه وتقدير ظنه وربما زاد الجانب المضاف هذا وهما على الجانب لأصيل.

نحن مدع هذه التخميمات وبجهد في حذفها كما اجتهد المؤلف الروائي في إضافتها، ولكننا لا نريد أن تعدلها حيث تترك الفراغ بعدها أدعى إلى الحيرة والتردد من الإثبات.

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه لتخميمات أن الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترمح إلى مركزين، أحدهما برئاسة حيمس أي (يعقوب) لسمي بأخي الرب ومقره بيت المقدس، والثانية برئاسة بولس الرسول ومريديه ومقرها خارج فلسطين بعيداً عن سلطان هبكل اليهود وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب إلى الحامطة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكث في العام لمسيحي داخل فلسطين وصرحها من بلاد الدولة الرومانية، كما يظهر من وصاياتها وعن أحوية المسيحيين في الدارج عليها، وكلها وصايا تحت على رعاية الشعائر الإسرائيلية كما تقدمت في أنبوءات

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المنقسمة في بيت المقدس حتى هدم الهيكل ونقوصت مدينة بيت المقدس وسدت الجماعة في أصراف البلاد، والت قيادة الدعوة إلى الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين فكان ذلك أثر كبير في أسلوب الدعوة وفي اختيار وسائل الإقناع إذا اختلف الأسلوبان بين الخصاب لموجه إلى اليهود وحدهم، والخصاب الموجه إلى الأمميين لناشرين من اليهود، حينما كان الخلاص على يد فرد من بني إسرائيل لإيمانهم بربهم أمراً مفروغاً منه بين اليهود، كن العالم الخارجى بحاجة إلى صفات إلهية في الرسول المخلص يقبها الأمميون، ولا يتقيدون في قبولها بالشروط والعلامات التي يلتزمها المتشبهون بحرف الناموس، وقد كانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هدم الهيكل وفترة الشعبة المقيمة بيت المقدس، فرصحت فيها دلائل الدعوة كما تولاها المبشرون بها في بلاد الأمميين، وغابت فيها الصفة الإلهية على صيرها من الصفات السموعة في جدار الهيكل، قبل إلحاح الحاجة إلى تنويع الأناجيل وأن المؤلفين ليطيرون إصناج كبيراً في ترديد الكلمات الإنجيلية التي تدل على اعصام السيد المسيح بكتب التوراة، وتوصية التلاميذ باتباعها على سبه لفريسيين، وأشهر هذه الكلمات قوله لتلاميذ

والجموع كما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين، من إحييل متى « به على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، وكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه، ولكن حسب أعمالهم لا تفعلوا، لأنهم يقولون ولا يفعلون »

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء في الإصحاح الخامس « لا تطنوا أني جئت لأنقص الناموس أو الأنبياء، وما جئت لأفصح بل لأأكمل، فإني لست أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل... »

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح العاشر « إني طريق أتم لا بمصوا، وإني مسنة «سبمريين لا تدخلوا، بل ادخلوا بلصري إني خرف جيد» إسرائيل لضالة».

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح الخامس عشر «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل لضالة ..» إني أقول أخرى تفهم من حضاميني، إن لم تفهم من يعطيها الصريح كما في هذه الأقوال..

رد وتعقيب

وعلمنا أن المؤلفين أصحاب هذه النظرية في غنى عن العناء والعنت في تأويل الكلمات أو لتعقيب عن لصحائف المطوية إذا كان قصاراهم أن يثبتوا أن الدعوة المسيحية امتدأت بتوجيه الخطاب إلى الأمة التي تدين بالبور ه وبدرقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها وأنهم كذلك في غنى عن العناء والعنت إذا أرادوا أن يثبتوا أن القائمين بدعوة الأمم قد اتخذوا لهم أسلوباً في الدعوة عبر الذي يتفهم عليه بنو إسرائيل الذين يقرأون الكتب ويعتقدون بما فيها من النعوت، وأن رسل الدعوة المسيحية إلى الأمم قد وصفوا السيد المسيح بصفات لم يتصف بها السيد المسيح في كلامه (الذي نقلته عنه الأنجيل).

كل أولئك لا حاجة بهم إلى العناء والعنت لاستنباط الأدلة عليه من مصامين الأقوال أو طوايا الصحف المنسية، ولكن هؤلاء المؤلفين أصحاب هذه النظريات يكفون براهينهم عتياً شديداً إذا حاولوا أن ينكروا أن دعوة الأمم قد بدأت في عهد السيد المسيح، وأن التلاميذ والرسل تعموا منه أن يشتموا الأمم بدعونه، ولا يقصرونها آخر الأمر على بني إسرائيل. فلم تتواتر أخبار الأنجيل على شيء كما تواترت على هذه الأخبار في مواضعها وفي مناسباتها المعقولة، ولم تأت الأنجيل في هذه الأخبار إلا بالنتيجة الصريحة التي يعرضها سياق الحوادث، ويستلهم منها منطق الأشياء كما نقول في مصطلحات الحديثة. وما كان السيد المسيح صانعاً بعد رفض انقوم بدعوته وإصرارهم على رفضها إلا أن يتجه برسائله إلى غيرهم، أو أن يكف عن هذه الرسائل ويعدل عنها بتقاً، فيعدل عنها التلاميذ والرسل، ولا يتجهوا بها إلى الأمم ولا إلى إسرائيل ؟

ولا يعرفون المؤلفين أصحاب هذه النظرية أن الرسل الذين بشروا الأمم بالمسيحية هم الدعوة الذين احتملو أشد العذاب في سبيلها، وهم الذين صمدوا لها بعد أن تفوق دعة المسخنة في بيت المقدس ومن يفعل ذلك لابد أن يكون معتقداً لما يدعو إليه ولا يكون مبلغه من لعقيدة أنه يحتال لاجتذاب السامعين إليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بني إسرائيل... فكيفما كان مرجع هذه العقيدة فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن

يدعوا الناس إلى تصديقها وقد اطمأنوا إليها قبل أن يروضوا الناس على
ابتغاء الطمأنينة فيها.

وبعد فنحن لا نستغرب لضحة التي أثارها المؤلفون بما استدعوه معتمدين
على أساسهم التاريخي أو على طريقتهم في تكملة التاريخ بتدقيق الصور
العينية من وحى القريحة أو من وحى الحدال. إلا أننا نعود إلى أنفسنا فلا نرى
أن هؤلاء المؤلفين قد طلعوا على رأى طارئ يدعونا إلى تعديل شئ، جوهرى
فى الصورة التى أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنا
خواطرتنا ومعلوماتنا لتأليف هذا الكتاب، ويسرنا أننا نعيد اليوم فى طبعته
الثانية كما بدأناه فى طبعته الأولى بغير تعديل يذكر إلا ما كان من قبل
الطبعات والصحف... ويسرنا قبل ذلك أننا لقينا من قرأتنا عرفاً مشكوراً
نعتبط به، ويعتبط به كل من مارس التأليف فى هذا الموضوع الجليل على
الشخص، ولا نعلم أن مذهبنا فى الكتابة عن «السيد المسيح» قد لقي من
أحد مستكراً يحسبه الكاتب أو القارئ فى حساب النقد المفهوم، وكل ما هالك
أن بعضهم ظن أن التأليف عن السيد المسيح يقتضى من أن ندين بالمسيحية أو
ندين بجميع مذاهبها فى وقت واحد، ولم يقل أحد أننا إذا كنا عن برهما وجب
أن نكون برهمين، أو كنا عن أدب الأمم وجب أن ننقل هيئهم من دين إلى
دين، ولو وجب ذلك على ناخذ لما كتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعوة إليها
من يتفقون فى الله الواحدة أو لا يتفقون. بل لو وجب ذلك لما كتب عن
الشرق إلا المشرق، ولا كتب عن أوربة إلا الأوربيين، ولا كتب عن الماضى إلا
من كان فيه، ولا عن المستقبل إلا مولود من نبيه، ولا وجوب لشرط من هذه
الشروط المفروضة فى حكم من أحكام النقد المفهوم.

وإنصافاً لكثرة القراء العالمة، نقول إنهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة
إلى جانبها بحساب النسبة إلى الألف، لأنها أكثر من أن تحسب النسبة إلى
المائة، وأبب تصادفها على نسبة متفاوتة فى شعب شتى من المطالعات
التاريخية اللبية، فربما كتب عن الحلفاء الراشدين كلاماً لم يعجب أفراداً من
الشيعة، أو كنا عن معاوية بن أبى سفيان كلاماً لم يعجب أفراداً من غيرها،
ولكن العبرة من وراء هؤلاء بقراء الذين يقرأون ما يوافقهم وما يخالفهم ولا
يرضونهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما فى ضمائرهم وخواطرهم،
وبين أيدي هؤلاء القراء قدما الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وبقدم الآن طبعته
الثانية على بركة الله.

● الباب الثاني ●

المسيح في التاريخ

المسيح

يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل، وظهر على عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة في الأمريكيتين، وليس في هذا عجب لأن لرحاء في الخير أصل من أصول الديانة، والأمل في الإصلاح مآله من مواد الحياة الإنسانية ينشأ الخلق في ضمير حله، ويصح لهم بها سبيل الاجتهاد في طلب الكمال والخلاص من العيوب

وقد شدد هذا الأمل حين شدد الحاجة إليه، فكان المصريون الأوائل يترقبون «المخلص» المنهد بعد روال الدولة القديمة، وروى برستيد عن الحكيم إيبور (Ipuwer) أن المخلص لم يولد «يلقى برذاً على لهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضي يومه وهو يمس شمل قطعاته» .

وقد كان لسائليون يؤمنون بعويدة «مردح» إبي الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة ونظهيرها من الفساد، وكان المحوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة يبعث في جسد إنسان، وقبل إبه هو رراشت رسول المحوسية الأكبر الذي يرجعون إليه بتفصيل الاعتقاد في إله النور وإله السلام، وقد تحلفت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهودية والمسيحية وإسلام، وأشار إليها لجاظ وهو يتكلم عن «ستاده إبراهيم بن سيار النظم حيث قال «إن السلف زعموا أن كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له، فإذا صدق هذا لرعم كان لسطام للآلاف عام هذه» .

أما الإيمان بظهور رسول إلهي يسمى «المسيح» خاصة، فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو لتعريفات عليها، في التلمود والهجاء وما إليها.

ومرجع التسمية نفسها إلى المشعشع التي وردت في سفر استكوين وسفر الخروج وما يلتهما من أسفار الأنبياء، فإن المسيح بالزيت المبارك شعيرة من

(١) صفحة ٧٩ من كتاب «نور من الشرق للقديم» مؤلفه جاك فريجان

شعائر النقيس و لكرم، وأول ما ورد في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين، حيث روى عن يعقوب أنه «كر في الصباح وأحد لخصر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا ذلك المكان بيت إبي - أي بيت الله».

وجاء في الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج أن «الرب كلم موسى قائلاً ... وأنت تأخذ أقصر الأصاب . ذهباً مقدساً لمسحة . وبمسح به خيمة الاجتماع وثبوت الشهادة والمائدة وتقدسها فتكون قدس أقداً، وكل ما مسها يكون مقدساً . وبمسح هارون وبنيه وتقدسهم .»

وكان الأقباط والأبباء يسمون من أحل هذا مسحاء الله، وتنتهي لتوراة عن المساس بهم كما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر لايم «لاتمسوا مسحاتي ولا تؤذوا أنبيائي».

وكن مسح الملوك أول شعائر التتويج، ولما بيع فكان شاعول ودود من هؤلاء المسحاء.

ثم أطلقت كلمة «لمسيح» مجازاً على كل مختار منور، فسمى كورش الفارسي «مسيحاً» كما جاء في الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا لأن الله أخذ بيده لإهلاك أعداء الإسرئيلين وإقامة بناء الهيكل من جديد، وسمى الشعب كله مسيحاً كما جاء في المزامير وكتاب السبي خنقوقي، ومنه «خرجت لخلاص شعبك خلاص مسيحك» بمعنى الشعب المختار.

وتكررت في كتب «العهاد» أو كتب التعاليم الإشارة إلى الرسول المنتظر باسم المسيح، فترة يطلق هذا الاسم على يوسف، وبارقة على موسى عليهم السلام، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحاً في صورة رسول هاد أو صورة شعب مبرور، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهم الهيكل الأول، فريد الشعب الإسرائيلي وعود أنبياء العودة الملك إلى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك ومدن الأمم لسلطات، ثم ترفى الإيمان «بالمسيح» بمعنى الملك إلى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار أو المختار للهدية ولصلاح، وبلغ هذا التحول عايته في بعض النبوءات ومنها تنويع أشعيا النبي امتأرت بتكرار هذه الوعود، فمن وصف القوة ولطش والصولة والصولحان،

إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكره في سبيل التحذير والتبشير وقد جاء في الإصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر أنه «محتقر ومعدون من الناس ورجل أوجاع وأحزان». وجاء في الإصحاح التاسع من سفر زكريا أنه «عادل ومنصور وديع يركب على حمار آمن آمن...» وانتهت أقوال كثيرة على أنه نأى مسبقاً براند يعلى مجبته، وهو النسي إيليا (إلياس) منبعثاً من الأموات.

وقد كان هذا الارتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الإسرائيلي في تاريخه المتعاقب، فيقوى الرجاء في المسيح المنتكف ضعفت السلوة للسيطرة على فلسطين، وهناك حطت الثورة عليها، وتعاطف الأمل في استقلال رعاياها، ويعود الرجاء إلى «المسيح الهادي» كلما استحكمت سلطان العالين وند أن الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير، وهكذا تروح تفسير الرسالة المنطرة بين رجعة الدولة وبصته الهدية على حسب أطوار التاريخ، فلما نخب فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وسدين قبل الميلاد، وأخذ الأمل في قيام الدولة يصاعل ويحلف الأمل المتابع في انتظار الرسول المخلص ولعته الروحانية، افترس هذا الحول بظاهرين تصطليحاً حيث وبصران من تنافضان جملة أحيان، فعمم سيسان الهيكل وكهانه حين تحول السطنان القومى كله إليهم وأصبح هذا السطرن ملاذ المتصلين إلى كل رئاسة قومية يصمد للدولة الأجنبية، ومن الساجية لأخرى جبحت الصمام المتعطشه إلى اليقظة الروحية جنوحاً منبرداً على تقديم مؤت بانتظار اسحت من عبر حنتب «الهيكل» ويقاياها وما حمدا عيبه مع الرمن من الموروثات والمائورات.

قلما بلغ الكتاب أجه وحدث ابحتة المرقوبة كان المعسكران متقابلين منحفرين على استعداد.

النبوّة بين ملى إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوّة أن نلم بأحوال لنبوّة هى الشعب الإسرائيلى منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسّة والتعليم بين قريّة وساطة، فمن أحوال النبوّة فى ذلك الشعب لم تكن على البصيرة التى تسبق إلى حواطرت من البصر فى توارىخ كبرى الأنبياء، وبوريج أفتريات التى مضت بين عهودهم فى الأمم المتعددة.

فنحن اليوم نستهل دعوة النبوّة ونعلم عن يقين أن الذى يقدم على ادعاء النبوّة فى عصرنا هذا يقدم على خارقة مستعربة، ويعرض نفسه لانتهاك المتدينين قبل الكرسي والملحين، لأن ألتاع، لأديان يؤمنون بختام البويات أو يؤمنون بأن النفس البعيدة ستقص عقائدهم، ويرغم لنفسه أن يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأحوال أنسانهم، أما المكرون والملحنون فهم لا يقبلون دعوى النبوّة فى هذا العصر ولا فى غيره من العصور.

ونحن اليوم نعلم أن الفسره بين إبراهيم وموسى، وبين موسى وعيسى، وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمدت لسنين، ففى اعتقادنا على الدوام أن ظهور الأنبياء حادث حل لا يتكرر فى كل حل ولا يراه لإنسان فى عمره مرتين.

ونحن اليوم نعلم من توارىخ كبرى الانبياء أنهم أقدموا على مصعب تخيف المقدمين عليهم، وشقوا بدعوتهم طرقاً لا يسهل تذليلها لأنهم حطوا الهة وسفوها أحلاماً وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصوراً بعد عصور، وأقاموا عليها سلطان دوى السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والحكومين كذلك صنع محمد، وكذلك صنع موسى عليهما السلام، فمن دوى الهداية إلى دعوة على هد لنحو فهو معرض للعنون والبعضاء، مقتحم على الناس طريقاً لا يقبلون اقتحامه من أحد، ولا يرون أحداً يقتحمه عليهم إلا اعتوه، وأقاموا له العرافيل.

أما أحوال النبوّة فى بى إسرائيل فينبغى أن نتصورها على غير هذا النحو لأنها تخافه من جملة وجوه.

فأول ما هنالك من لفورق أن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن وجودهم ندرة، ولم يكن سيهم فترة، أو لم يكن حتماً لزاماً أن تكون بينهم فترة، فقد يوجد منهم في العصر الواحد أربع مئة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول حيث جمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربع مئة رجل وسألهم أن يذهب نبي رامة جعد للقتال؟»

وخبر ف ورد في وصف مكان الأنبياء بن بني إسرائيل قول النبي (محمد) صلوات الله عليه «علماء أمي كانبيا بني إسرائيل».

فقد كان عمل النبي في شعب إسرائيل كعمل العالم الفقيه في الأمة الإسلامية، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم لخاصة أو العمة في وقت من الأوقات، ولم يكن قدامهم إكباراً لتمام الأنبياء من قبلهم، بل هو تفسير للكتب والذر وحس على اتباع أسس النبي رسمها لهم من قبل إبراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن له وعد إسرائيل «أن يقيم أسياء مثله ويجعل كلامه في أفواههم (١٨ تثنية) و من بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث إلى الناس بكلام غير كلام الوحي فعليهم أن يسدوه». «وإن قلت في قلبك كيف تعرف الكلام فإني لم يتكلم به الرب فاعلم أن ما يتكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصير هذا كلام لم يتكلم به الرب.. فلا تخف منه»

بل يجوز أيضاً أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع إلى وصايا الأنبياء إذا دعوهم إلى عبادة رب غير إله إسرائيل.. فبدا قام في وسطك نبي أو صاحب رؤيا وأعطان نية أو أعجوبة، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا بل دعاك إلى عبادة إلهة أخرى ثم يعرفها ويعبدها ولو صدقت الأعجوبة أو لاية.. (١٢ تثنية)

ويم تكن النسوة يأتين من دوى السلطان أمراء كنوا أو كهات أو شيوخاً مطعنين في القبيلة، بل يمتلكن بقى الإنسان بالإبقاء إلهة فمضى في تبغ وحب ولا تقوى أحداً على كف سبانه كما قال أرميا «قد أقنعني برب فأقنعت وألححت على فعبت. صرت أضحوكة وهرأة. وكلمه برب جللتني بالعار والسخرية.. فقلت لا أدكره ولا أنطق باسمه بعد، فكان في قلبي كنه نار محرقة محصورة في عظامي، فلم تكن لي صفة بالسكوت» (٢٠ أرميا)

وكثيراً ما كان النبي يمشي على زملائه في عصره ويحالفهم في تعسير اندر من وده، كما في أرميا «من بعد أنبياء أورشليم خرج نفاو إلى الأرض كلها.. فلا يسمعون كلام الأنبياء الذين يمشون لكم فإيهم يطمنون عملكم ويتكلمون برؤي قلوبهم».

أو كم قال ميخا لك إسرائيل. «هو ذا الرب قد جعل الروح كذلك في أقواه
جميع أنبيائك هؤلاء»

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة «وصرب ميخا على افت وقال له من
أبى عن روح الرب منى ليكلّمك».

وكان المعهود في الأنبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء إسرائيل حالة
الكشف كما يطلبها المتصوفون والنسب فيما علمناه من أخبارهم المتواترة.
فمنهم من يصوم وينهجد ويمسك عن فصول العيش ويلتمس المنارة ولأنهار كما
قال دسل «لم اكل طعاماً شهياً ولم يدخل في قمى لحم ولا حمر ولم أدهن حتى
تنت ثلاثة أسابيع، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر الأول إذ كنت إلى
جانب النهر العظيم بجلة رفعت عيني وبضرت»

بل منهم من كان يستعين بالسماح ليشرح بصفااء الروح ويستلهم الغيب كما
جاء في سفر صمويل الأول. «إليك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة
أمامهم رباب وبف وبأى وعود وهم يتبأون فيسجل عليل روح الرب» (٩
صمويل أول).

أو كم جاء في سفر الملوك الثاني «عقال النشع حتى رب الجنود.. الان
هتوني بعود فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب».

ولكن الأغلب مع هذا أنهم كانوا يرتلون الخلوب ويفطعون في جوانب
الأنهار «عند نهر حابور أصبحت فرأيت رؤى الله» (حزقيال).

ولا نسمع عندهم أن بلهم لله بالرويا الصالحة أو الدليل الذى ينشأ من غير
الأنبياء ومن غير شعب إسرائيل كما ألهم أنبياءك ولعام، ولكنهم بلهمون
ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين.

وكن أعالي على سامعى النبوءات أن يطلبوا اية يعظمون بها أن المتكلم بنطق
بوحى من الله ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلاً على اليقين والإيمان، وربما
أذن للنبي أن يطلب الآية ويمع من طيها هنرى من الأدب الا يجرب ربه بدليل
هذه الآيات (٧ أشعيا).

على أنهم كانوا يلجأون إلى الأنبياء يستشيروهم قبل الحرب أو الرحلة
أو لإقامة لعلمهم أنهم أقرب إلى الله وأبشئ أن يطلعوا على لعب المحجوب عن
أنصار الديويين المتعمسين في هموم الحياة، ومن هؤلاء لأنبياء من كان يستمع

الروحى صوتاً عالياً، ومن كان يحسه إلهاماً أو هدنة أو رؤيا صالحة، وعابياً ما كانوا يقصرون رسالتهم على التنذير بالعقاب كلما خرج لشعب عن الأقدامين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها أبائهم من الأنبياء السابقين، فلم تكن نبوءة اقتحاماً ولا ندعة مستغربة ولم يكن فيها خطر على النبى إلا حين ينصدى للملوك والأمراء، فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعتمد إلى التكييل بالنسى فى هذه الحانة ليثبت للناس كسبه وأنه لم يأت من عند الله، إذ كان موت النبى الكاذب إحدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف لحالة جو وصفها حين يقول إن أهوم كانوا يبحثون عن الأنبياء، ومنقبوبهم ولا يعبرون ظهورهم حارقه يستهلونها أو يستعربون تكرارها، وأن الإنسان النهيى للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائرته بحوقرها وألحت عليه أياماً بعد أيام، حتى يصبح السكوت فى حكم سربرته عصيانياً لأمر الله ونكولاً عن إرادته، ومتى استقر فى سربرته أن طلب الآلة تحرية لله وضعف فى الإيمان فأسلم الأمور عبده حيث مجش نفسه بروح الله أن ينذر وبشر، وعنى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدى الناس إليه كما يشاء.

وفى عصر الميلاد، ذلك العصر لدى برقت فيه النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يرقب الراصدون كوكباً حار موعداً طلوعه - لاحرم تتفتح الأذان لصوت المبشر الموعود، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخير المنتظر، وأن يمتحنه الناس فيعبروا غاية العسر فى امتحانه، خوفاً من سهولة الدعوى على الأدعياء، وخوفاً من بطلان الرجاء فى إبان اللفظة على الرجاء، فهو رجاء عظيم يعلقه المرحون على برهان عظيم.

الطوائف اليهودية

في عصر الميلاد

كان العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه لمسيح المسيح يشتمل على طوائف مختلفة، لكل منها مذهب في انظار المسيح المخلص الموعود. والتعريف بهذه الطوائف ضروري لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التي سبقتها في بيتا بنى إسرائيل.

وضروري من جهة أخرى - فيما نرى - أقوى دليل يرد به على الباقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النفذ والتشكيك حتى جازوا الشك في المسيحية وروايات إلى الشك في وجود السيد المسيح نفسه، كأنه في زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير. وتنسقط دعوى هؤلاء المناقدين بمجرد الإحاطة بأصول المذاهب التي كانت معروفة في عصر الميلاد، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلاً لكل مذهب من هذه المذاهب في ناحية من نواحيه. وكانت هذه التعديلات في جملتها بثوب إلى وحده متماسكة من الفواعل والمثل العليا. لا بد لها من «شخصية» مستقلة عن هذه المذهب جليل، قدرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متنسق الفكر والإيمان.

ونكتفي من الطوائف الدينية التي كانت معروفة في عصر الميلاد بخمس منها، وهي طوائف الصدوقيين والعريسيين والأسين والعلاة والسامريين، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة في تاريخ العصر بمزية من المزايا التي تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية.

فالصدوقيون هم في دعواهم أتباع «صدوق» وأسرته الذين توارثت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان.

وكانت طائفتهم مهمة بمرکز أصحابها، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجهة والثراء.

وقد كانوا متشدين في إكار المدح والتفسيرات. متشبهين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهنة، ويقبلون أقدم الكتب التي احتوتها لتوراة وهي كتب

موسى عليه السلام، ويرفضون ما عداها ولا سيما المثورات المنقولة
بالسمع

وتدعوهم المحافظة على النظام ثقتهم إلى مسلك يناقض عقيدتهم فسمما هو
ظاهر من لوازمها فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحصارة البوبائية
وعادات المعيشة في اميئات الرومانية، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب
الفلسفية كمدعب أبيقور كما كان مفهومها في ذلك العصر، وقد كان الشائع عنه
يومئذ أنه مذهب الندة الحسية والمتعة بالترف والتعيم، ولكنهم في الواقع لا
يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم في كل زمن، فبينهم يافظون على نظم المجتمع
لأنهم أصحاب اليد الصرى عليه، ولهذا يحبون مناعه ونعمه ويوفون بيمينهم وبين
أصحاب السلطان السياسى، وقد كانوا يومئذ من البوماء والرومان، ويملى لهم
في هذه لمرعة أنهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم
الأخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة، خلافاً للطوائف الأخرى التي
تؤمن بالبعث والحساب.

وقد كنت الحمله على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين،
وهما «حنانيا» و«قياما». ولم يكن في ذلك عجب لأن الصدوقيين جميعاً
يحفظون على سلطان الهيكل، ويحافظون على النظام ابقنم أو لا يستريحون
إلى الثورة والانعقاد.

وخالصة آداب الصدوقية أنهم حرفيون في مسائل الدين، متوسعون في
مسائل المعيشة، ونهم يعاشرون الأحاب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم لأن
أعمالهم ومر كرمهم منصلة بنوى السلطان.

وتقبل الصدوقيين طائفة أخرى هي طائفة الفريسيين، وهي أقوى من الطائفة
الصدوقية بكثرة العدد وشعوع المبادئ والآراء، وحسن السمعه بين سواد
الشعب وعية تقوم الدين لا يحالطون الأجانب، وإن لم يكن بين أفرادها كثيرون
في مرتبة الرؤساء والوجهاء.

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تعرب كلمة «الفرد» العربية في
لفظها ومعناها، فهم المفروزون أو المتميزون، وخصومهم يصفون عليهم هذا
الاسم تهكماً وتحقيراً لاعتقادهم أنهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق
الجماعة الأولى أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على
نفسهم ويردونه إلى خطاب الله لئلا يسي اسرائيل جميعاً كما يرونه في لإصحاح

العشرون من سفر اللاويين، ههناك يخاطب الله الشعب قائلاً «وهو مميّزكم من الشعوب لتكوبوا لى».. فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون

لهذا كانت تلتزمهم فى بعض الأحيان صفت لادعاء والتعالى التى يلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزيد بين الطوائف الأخرى، وكان بعضهم هدفًا لخصومات السيد المسيح بتدأ بما يظهر منه من الثقة والكبرياء

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الموجهة والثروة التى كانوا يستكرونها على خصومهم الصدوقيين، وكانوا يثيرون على السلطان «الرسمى» حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع الأحسن، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم، ويذكرون فى الوقت نفسه عادات الأحبار والمتشبهين بهم محاكاة للحكام واحتسطين

وقد كانت ثورتهم الأولى على لدع الأصبية التى كانوا يرفضونها كل الرقص ولا يسامحون من يقبلها، فلما أمر الملك «أطليوخس» كاهن الهيكل أن يصحى فى مديحه بالحنارير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى «مروبيرس» عجب من عنادهم فى مقاومة السولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها، فسأل رعاياهم كيف يحظر لكم أن تحاربوا قنصر ولستم أكفاء لقوته «فقالوا نحن لا نحارب قنصر ولا نرغم أننا أكفاء لقوته، ولكننا نموت على فكرة أبىث ولا نخالف الشريعة، وكشفوا رقبهم مستعدين لإثبات ما يقولون.

ومن فائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل ورعيتهم فى تعميم اشعارهم التى كانت محصورة فى المحاريب هى التى دعاهم إلى إقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة إلى الكهان المرسومين، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلًا مقدسًا لمراسم.. فكانوا على ميلهم إلى السماح ومقومة الاستبداد «الرسمى» أشد من المتشددين

إلا أن الغالب عليهم حين يسعون عن أمور التى تعرض لهذه البقتض أنهم أقرب إلى التصرف والقياس، أو أقرب إلى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتفاسيد، فكان الصدوقيون مثلاً يصرون على شريعة العيين بالعيين واسن بالنس ولا يقبلون الندية، وكان العريسيين على عكس ذلك يفضلون الندية والسماحة على القصد، وكان الصدوقيون أقرب إلى المديّة والقواعد العممية

وكانوا هم 'قرب إلى الروحانية والآداب النظرية أو داب التأمل والتفكير، وقد كان إنكار البعث والحياة لروحية أشد ما يبكروه على خصوصهم الصدوقيين، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى انضمار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص في عالم الروح، عبر معبد يشروط الصولة والصولجان.

وأذا وصف لصنوقيون على الإجمال بأنهم طنقة «الارسمقراطيين» فالدين يسبحون وصف الديمقراطيين نور غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر هم القريسيون.

وقد جاء عصر ايلاد وهم ينقسمون إلى فريقين فريق منهم يتبع الحكيم «هلر» الذي قدم إلى فلسطين من بابل، وهو الفريق لسمح الودود في معاملة الأجانب، والفريق الآخر يتبع الحكيم «شمائ» وهو أقرب إلى التحرج والخصميق وراء الراغبين في تحول الدين من غير اليهود، وكان شعار هلر الاعتدال بين الزهد والمعاية وكلمته الماثورة «إن الزيادة في اللحم زيادة في اليهود». وشريعته في المعاملة أو الشريعة كلها كلمة واحدة وهي ألا تصيب أحداً بما نكره أن تصاب به، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل. وأب الحكيم شمائ فقد كان الاعتدال بين الزهد واليساع أكثر مما يطبق، وروى أنه كان يحترف التجارة ليعيش من كسب عمله، وأن غيرته على الدين كانت أقوى من إقداله على التحديد والتصرف في تمويل النصوص.

والقول الراجع بين المؤرخين أن معلمى السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة القريسيين.

والطائفة الثالثة التي تقل عن هاتين للطائفتين في العدد كثيراً وتساويهما أو تزيد عليهما هي بقرة والأثر هي طائفة الآسين أو الآسيبيين كما بكتبها رواية الأخبار عنها في عصر الميلاء.

عدهم كما قدره المؤرخ يوسفوس ولفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم في جنوب فلسطين

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وينظم الحطة، وقد تكون دلائلهم أعظم من قوتهم؛ لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت شعائره وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن «الهيك» كله هي علاقتها بالدين والقومية ولولا أنها يعترف بنقريب القراسين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيران ولا تقرب القرابين من غير النيات.

واسم هذه الطائفة مختلف عليه، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة «آسى» بمعنى الطبيب أو البطاسى فى اللغة الآرامية، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد للغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها. ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسى لأنهم كانوا ينحاطون طب الروح ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العيم بحصان العاقير.

وقد نشأ الطائفة على لاعب بالإسكندرية فى القرن الثامى قبل الميلاد و قدست من المدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية، كمذهب فيثاغوراس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو إلى التقشف والقناعة بالقليل.

وكان حراماً عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من الثعال أو يدھر الأمتعة والأفوات، وكانت أربابيه عابدة عليهم إلا من أس له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبنوة

وكانوا ينظمون فى لحظة على ثلاث درجات درجة التلمذة، ويقبلون عندها اصديان فيما بون الحلم، ثم درجة لمقسمين، وهم اندير يقسمون لسمين ويقضون سنة فى رياضة والتدريب على عبادة والاطلاع على الأسرار، ثم ينقل المرید إلى درجة الوصين ويقضى عندها سنتين، ثم يلبس شععر الطائفة وهو ثوب أرق ورمار ويحمل أنفاس فى يده، كناية عن العمل الشاق، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعتر متواتر يقوم بها الأسانده، منها الاعتسار وتلاوة بعض العهد، ويقسم أحدهم مرة واحدة بين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم بالحق أو بالمناصل مدى الحياة، ويحوز فصل العضو بعد رسمه إذا حدث فى يمينه وتفق مائة من الإخوان على إداسه، بل يجوز الحكم عليه بالسوت إن بلغ الحدث حد الحياة والكفر بقواعد الإيمان.

وهم بنظھرون من الحدث، ويصلون عند الفجر، ويحافظون على الراحة فى يوم السبت، ومنهم من لا يسبيح فى ذلك اليوم إرادة الضرورات.

ولس بينها رئاسة ولا سبادة، والرق عندهم حرام، وعملهم المفصل الزراعة والصناعة اليدوية، أما البحارة، فهى فى مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق، وأخبت منها حمل السلاح للقتال.

والمادة عندهم مصدر الشر كله والسرور بها سرور بالنفس، والخيانة وكان يعلب عليهم من أجل هذا وحوم الصمت والعدم، وكل ما يباح بهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح، وهو عالم سماوى فى أعلى الأثير يرتفع إليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت

وكانوا يتأخرون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الأهلة بالسكان أو فى لأحب، التى يرادها القصائد للفرجة وإرجاء الفراغ.

وهم مؤمنون بالقامة والنعت ورسالة المسيح المخلص، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهتدى الشعب حياة الاستقامة والصلاح، ورائدهم فى طلب أرضا من الله هو لىي عاموس السى كان يعلم لشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبايح والهدايا.

ولا يبعد أن يكون العلاء أو لحيليون أتباع يهودا الجليلى فرقة منطرفة من قرو الاسير، لأنهم سلكوا مسلكهم فى لتقشف والقداسة ويريدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص، وهم الذين ثاروا وطمخوا للعصبات فى لسنة السادسة أو الساعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر لإحصاء الذى صدر من «كرينياس» حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معذوبين فى رعيا قيصر، أو عبده الذين يدبون له بالسيادة، وحثهم أن طاعة القيصر من عبادة الأوثان، وأن إحصاء الشعب لاعتباره من عبدة اقيصر مروق به من الديانة ولد رفع المس هيرود بمثال النسر القصرى فوق هيكلى بيت المقدس ذهب ثمان من اعلاء إليه وسرعاه عبوة وأندى إخوانهما من يعيده إلى مكانه بأبوت، وقد ثار هؤلاء فى سنة لإحصاء يقبلة يهودا الجيسى ومات هو وابناؤه وبوره فى إبان الثورة، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذ، لسعة المتوسطة بين لقارات الثلاث فكانت مؤثر لبقية ولداراة فى معاملة النابرس، ولا تأخذهم بالعنع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحنم والآنة.

والطائفة لسامرية خسيط من ايهود و لاشوريين، كانوا يقيمون فى ممكة إسرئيل، لقدمة، يقال إبنهم قبائل اشورية، رسلها ملوك بابل إلى فلسطين لسكوف فى أماكن البعائر ليهودية التى بعيت إلى ما بين النهرين وسمنت

من أجل ذلك سسنا نال، ويقال إنهم اختلطوا باليهود الذين بقوا في بلادهم ولم تضمنهم الدولة السبيلية إلى بلادها مع القبائل المسيحية، فوقع من هذا الاختلاط في السكن والنسب اختلاط في العادات والعبادات، وبعد أن يهود الذين رجعوا من السبي بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرتهم المخالفة لتعاليمهم واتهموهم بعبادة الأوثان، ورفضوا مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد، فعند السامريون إلى بناء هيكل خاص لهم في جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدرسوا هيكل بيت المقدس ويحصرروا القبلة في هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم، وقد بقي منافساً لهيكل بيت المقدس زهاء مائتي سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كايوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائماً حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد، وقد هدم فساسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة «نيوبوليس» أو نابلس المعروفة اليوم، ولا تزال بقايا اسامريين تحتفظ بتعاليمها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية ولا تدين بحاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر أميلاد حتى نزل الأمان في السفر بين السامرة وبلاد الأحرمي، وعرض للإهانة والكال كل من خاضع بالصغر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال.

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود، ويرجع شأنهم هذا إلى الصراع القديم بين مملكة يهوذا في الجنوب ومملكة إسرائيل التي ورثها السامريون، وهم يتنسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم - بنو هيرهم - الجديرون باسم «الإسرائيليين».

فإذا اعتقد أصحاب مملكة يهوذا في الجنوب أن عاصمتهم بيت المقدس - هي مقر لست المنتظر، وأن هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد إلى بولتهم ويحصل الخلاص على أيديهم، ولكن السامريين أبناء الشمال كانوا يلحون في عدائهم لداود ودينه ويشرون لبروع القديم بين الأسباط، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدي ملك من أسرة

الملك في يهود ويعبحون بذلك السبيل إلى الإيمان بالحلل والهداية الشعبية، ويرعرون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبي وفيهم عسى أن يبيعوه بالملك، إذا حان الموعد المقدور.

ولم محل اسلاد حصيماً - مع هذا - من بس هت وهياك تسسوا من جميع الطوائف والنحل وأعزلوا الدنيا وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران، ورتفع شأنهم في أعين الشعب أسوء ضته بالدعاة أعماسين للدنيا في بيئات الساسة والكهان، ومن هؤلاء «نابوس» الذي تنطق عليه يوسفوس المؤرخ الكبير ثلاث سموات، وكان هذا لفسك الشائر يعيش في عزلة ويأكل معا يتفق له غير سعى ولا مسألة، ويكثر من التطهر بأداء والتركي بالرياضة والتلوذ، وكان على مثال بنوس تسالك متعددون شبيهونه في شعائر الاعتزال والاعتسالي، وأشهرهم يحيى المغسل المعروف في الأناجين باسم يوحنا المعمدان.

أم موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف «الرسمي» لليهود... أو موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتحنيوا التحيز لهذا أو لذاك، ويحتهدون غاية اجتهداهم أن يكسبوا ثقة لشعب ولا يفسدوا سلطان الدولة، ولما يفسر لنجاح في هذه المهمة. ولا سيما في أوقات الفلق والنطع والتبرم بكل موحود.

كان الهيكل حيمة في عهد البداوة، وكان الشعب يعتقد هديماً أن الله يتجلى في هذه الخيمة للأنبياء والكهان، ثم بنيت الخيمة من خشب يفا ويسفل في أيام التيه، ثم أقام سليمان الحكيم مملكة بدلاً من الحيمة والمعبد الخشبي، وقيل إنه أنفق على بذته مائة ألف وزنة من الذهب، وألف ألف وزنة من البضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابيه، وبلغت تكليف بنائه بحساب أياما الحاصره نصف مليار من الحنياهات وضعف ذلك في حساب الآخرين حسب تقدير المثلقل في المعاملات الرسمية وغير الرسمية، وعضمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردياً من الزمن، ثم هدمه البابليون بعد أن قام في مبعده أكثر من أربعة قرون، ثم أمر كورش الفارسي بإعادة بنائه في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأصاف إليه، وبم ذلك أو كاد في عصر الميلاد.

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة حسر من المكته بمقدار ما كسب من الفخامة، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل

يتداعى هي الحديقة الواقعة ويمكن في الصورة الظاهرة يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة، وينمكر لأنه كان المثل الوحيد الذي بقي لقومه بعد روال ملكهم والناس من إعادة ذلك الملك، مع علمة الرومان على لمشرق والمغرب في عصر الميلاد.

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة في أصحاب الكهانة، وهي وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته بولاهما غيرهم من أسباط اليهود، ومن أعمالهم في الهيكل إقامة الصلاة والإقراء في مسائل الفقه وتقنين الذبائح والخدمة الدينية في الأعراس والمناسم والعبادة بالآنية المقدسة، وقد مرأيد عدددهم مع الزمن حتى قيل إن القائد رزبيل (أى المولود في دين) كان معه عند عودته من الميلاد الببئية نحو أربعة آلاف وثلاثمائة كاهن غير لسابقين والمتحفين، ولهذا كانوا يقسموهم إلى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من اشهر، ويقسمون جميعا في النذور والمرتبات

ول تطاول الزمن وتكاثرت دريه هارون وجد منهم الوف يعير علم ويعير عمل، يتعاطون صنف الكهانة ويقسمون لنذور ولا يشتركون في تعليم الشعب ولا في إقامة لصوات، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا يصعب لهم من وظائف الهيكل ولا نذور وأوقافه، وهؤلاء هم جماعة «الكنية» أو فقهاء الدين، وكانوا جميعا من القريسيين لأنهم هم الذين يفتلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات، خلاف تصديقيين الذين كانوا - كم تقدم - يقصرون تالوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء.

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون في صناعه الكهانة ولكنهم لا يعملون في الهيكل، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين، وشاع بين الشعب إهمال الكهان في المسائل الدينية التي تحتاج إلى التعليم والإفتاء على الخصوص وشاع بين الشعب كذلك الإقبال على العلماء «غير الوراثيين أو غير الرسميين» لسؤ لهم في العضلات والافتداء بهم في مسائل الحياة، فأصبحت المكانة «البقليدية» بصرية قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية عبر مصححة بالمراسم «الكهوتية» والشعائر «الهيكلية» على الخصوص.

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة في المجمع المقدس الذي يطلق عليه اسم «السندرين» ، وعدة أعضائه وأحد وسبعون عضواً منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المحصوص وتعلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة في الشؤون العامة وما يرجع منها إلى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو لشريعة الموسوية.

وعلى حسب المؤلف نحاول أصحاب المذهب في «السندرين» أن يرجعوا بأصله إلى أقدم العهود، وكانوا يرجعون أنه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر العدد إذ يقول «فقال الرب لموسى اجمع إلى سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل الذين تعين أنهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقل بهم إلى خيمة الاجتماع فيقيموا هناك معك، فأنزل أنا وأتكلم معك وأخذ من الروح لدى عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمل أنت وحدك».

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تحلو من ذكر السندرين، إلا إشاره عابرة هنا وهناك لا يستعاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه، ومما لا ريب فيه أن المجلس الذي كان في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني نحو أربعين سنة، وكتب أحكامه الكبرى في أيام المسيح معلقة على إقرار الحاكم الروماني بقررها أو ينقضها حين يشاء.

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى «المسيح المنتصر» لم نكد نرى فيها ما عاينا في الترحيب بتلك البشرى، لأنها تضمن الحكم بفساد الزمن كله ولبأس من صلاحه واتهام الفاضلين على شئون الدين بين أهلها، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تنكر لهذه الدعوة ، لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين، فهي هي موقف الحائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه، أو موقف من يذهب للبطش بالدعوة على قدر الإقبال عليها ومجمل الأمل في شيوخها وبنسارها، وهي إذا انبشرت لم يكن منشارها في مثل ذلك العهد مقصوراً على النعماء دون غيرها، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان ولا يأتي أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون، لأنهم آخر الرمان الذين تدركهم صيحة لدير، وينصب لهم ميزان الحساب

ولا يستوفى الكلام على اقربى الدسة لتي كان لها عمل محسوس في موطن السيد المسيح قبل ميلاده عليه السلام بغير الإشارة إلى طائفة المدرسين أو المنذرين لدين ومموا أنفسهم أو وهبهم أهلهم لحياة ، تقداً وحمة الله والتشهير باليوم الموعود ، يوم الخلاص من الظلم والجور واسطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء المدرسون طائفة تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب السبل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا احدى متفرقين يذُر كل منهم بعبه أو يذره أهله على حدة ، ولا يستسور إلى جماعة واحدة غير جماعة ، لامة بأسرها .

و لكلمة بالغة العبرية ترجع إلى مادة تفقد معنى التجديد واستعيرت على ما يظهر للصهيدي في سبيل الدين ، نقل تذر الحيش الرجل جعله تذر أي طلبه . وربما كان من عمله أن يذُر قومه بالعدو ويبعدهم عن الحاطر والمفاحات ولا شك أن المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان .

ولا يشترط في الدرى أو المنذور أن يهر العالم ويعزل الناس في الصوامع ولكنه يراض على حياة النبطس فلا يجور له شرب الخمر ولا أن يذس جسده بملامسة الموى أو لأجسام المحرمه وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وهاء تذر إن كان مندوراً لأهل مسمى ، وقد يذر الطير قبل مولده ويمتد بذر طول حياته . ويقال عن المنذور أنه بمثابة النبي هي من الفتوة قال اننى عاموس طسان يهوا إله بنى إسرائيل . وأقامت من بينكم أنبياء ومن فتياكم بديرين . لكنكم سقيتم الديرين خمر وأوصيتم الأنبياء أن يذروا السوء والسوءة هت بمعنى لإذار بما سيكون .

وقد تكاثر النديرون قبل مولد السيد المسيح لأنه وافق بهيه الألف اربعه من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى وهو الموعد لدى كن منصر ، لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينظرونه على رأس كل ألف سنة ، ومنهم من كن يقول إن اليوم الإلهى كالف سنة كما جاء فى المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع إلهى ، نصفى سنة ادم فيه فى انعباء والشقاء وبأى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم اسست للراحه وتسكينه ، فيدوم ألف سنة كمنه هي فترة الحير والسلام قبل بدء العالم ولا يرأل العربون يعرفونها باسم الألفه melli annis وبظلموها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام .

فالذين قدروا أن الفيه نفوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يوحلون هييم ملكوب السمء على الارض إلى بهيه الألف السادسة ، ويومئذ

سود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم في اسطار رسول من عند الله
كلما انتهت ألف سنة من بدء الحليفة، وكانت بداية الألف الخامسة موعداً
منظوراً أو منثوراً يكثر فيه السديرون. لعلمهم يحسمون من حشد الخلاص أو لعل
واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه.

والهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل
(يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم العديدين وكان السيد المسيح يعتمد
على يديه أو يأخذ لعهد عليه، وأن بعض المؤرخين بحسب السيد المسيح من
النذيرين وينسب عليه الأمر بين النذيرين والبصري وهما في اللفظ العبري
متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يرعى أن
الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم، ولكن
الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى بديره بمعنى الطليحة
عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديما، وأنها كانت مرقباً
صالحاً للاستطلاع لأن التلويح التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل
والمرج المعروف باسم مرج ابن سمير، وهذا مرول الصعوبة التي اعترضت
المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما النذيرين في اللغة اليونانية، لغة
الأنجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف السببي فلا يفرقوا بين النسبة
إلى النذيرين والنسبة إلى السيرة، وبخاصة إذ كان اسم البلدة قد عرض له
التصحيف على السنة العبريين والعرباء على طول الزمن، فنطقوه تارة بالصاد
وتارة بالسين.

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب
يوثق حمته الشباب وهذا الذي جعلهم قوات داب بار هي عصر الميلاد خاصة،
لأنهم جميعاً فنان معتمرة قلوبهم بالأمل معقودة بدينهم على الإصلاح، يؤمنون
بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للفرح به والإصغاء
إليه ولا تحيط بهم طائفة أو مذهب محدود.

الحالة السياسية والاجتماعية

في عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير «بومباي» الذي قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة «سبارتاكوس» المشهور.

وقد حسنت هزيمة «سبارتاكوس» من العطاءات التي أضافت إلى مجد بومبي وحللت ذكره بين أبطال الرومان، ولكن هذه العطاءات بصرى على الأبطال والبول مجداً لا ينطوي على خير كبير، فمن دلائل القوة أن تستطيع لدولة قمع عتته كذلك الفتنة الصارة التي لم يعرف لها مثيل هي ثورات العبيد الأقدمين، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التي تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر، فلو لم يكن هي حبة الدولة صدع محيف لما استطاع عدد أن يجمع سبعين ألف عدد ويقهر بهم جيوش روما رهاء ثلاث سنوات ولولا حثل في كسب المجتمع لما اشتمل على أصعاف هذا العدد من الأرواء المسحرين الذين يضربون إلى مجد رومه نظره الحقد، ويجارفون بالحياة ليهبطوا بها إلى الحمص.

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول «عبد» شرفي ثائر على الدولة الرومانية بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية إلى ثورة في صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشاً اسنقر في الحرية عشر سنين، وهذه هي الثورة التي نحى قائلها «أونس» لأتباعه في صورة «نسي المرسل» وهي إشارة إلى الخوخ سد «له»، وكان أصله في سورية وكثير من أتباعه شرفيون.

وقد سبقث ثورة اونس السوري وبحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف، ولم تحل إحداها من صيغة بحدنة فيما تدعه لقيتها، وكانت وحدة منها هي آسيا الصغرى نشئ لها حكومة تسميها حكومة «الشمس» رمزاً إلى عبدة النور والحريه، ويقوم هذه الحكومة ولتوار المهزموين في صقلية يعقرون بالآلوف على أخشاب الصليان.

ولم يكن هذا لخطر الكمين حافياً على المصححين من سياسة الرومان في الأجيال القريبة التي سبقت ميلاد السيد المسيح، فزوا إصلاح العيوب

الاجتماعية بالرجعة إلى الشريعة التي تقيد الموارث وتحرم ريادة الميراث على حفسمالة فدان، وظل كايوس جراسس Gracchus أنه يعالج الافة بيشا طبقة حديدية من الصيارفة و، لتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الصناعات المتبطلين، واضطر هو وأخوه إلى تعيين المعوزين بأغذية تباعها البوالة بأمر من تكاليفها، ولكن عو، مل الحراب كذب في تلك الأصيل أعمق وأفعل من عو، مل العمر والصلاح، فلما حاول يوليوس سلس في سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن يخلط الإقتضات بشريعاته الرامعة قال في خطابه «التفسيرى» كما روى شيشرون «إن ملك الأرض في مدينة رومة لا يزيدون على ألفين»... وازدادت هذه الحالة سوءاً في عصر أوغسطس المجيد كم يوصف في التواريخ، فالت المستعمرة، الأرفقة إلى قصبة سنة من الأنبطيين، وفيها أبواب من الأرقاء اسحرين.

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الملز الذي قال فيه السيد المسيح في رواية الحواري متى «إن لشعالب أجرة ولصبور السماء أوكراً، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه».

والواقع أنه كمر عصرًا مجيدًا بقوة السيف نور كل قوة أخرى من القوى الإنسانية، وقد أخذت رومة من قوه لسيف كل ما تعطيه فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين، وألقت رومة بكل اعتمدها على هذه القوة فأصبحت لها سداً لا غنى عنه، وانتهت بها الحاجة إلى تلك القوة أنها ألقت بنفسها على مذبحها، فباعتها حريتها وكرامتها، وصيغت الجمهورية في سسل انقيصرية المطلقة، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة، فجلعت على انقيصر أوغسطس لقب إله، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهراً في السنة لا يزال معروف باسمه إلى اليوم، وتابعت بعده عهد انقياصرة العسكريين من أمثال طراصن وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم، حتى عر عليها آخر الأمر أن تجد انقياصرة العسكريين.

وكان القاسون والباطام مخر رومة الأول، قضاع لقاسون مع السلطان المطبق، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين. ثروة وترف وطغشان من ناحية، وفقر وصنك وهوان من ناحية، ولا نظام لسول مع انحلال البوارى هي المجتمع، بن لا نظام للحياة نفسها ولا قيمه بها مع إفراط النعيم حتى السأم من

الحياة. وإمراط الشقاء حتى البقمة على الحياة فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الحاسر الذي كسب العالم وصيغ نفسه، فضاء وأضاح.

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية في فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها، لأثر النزاع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قراراً في مدى عشرين سنة، وانقسم الرأي في فلسطين بين الدوليين منهم من يشايح العرس ومنهم من يشايح الرومان، واشتد التناحر بين الفريقين اشتداداً خرج بهم إلى ضراوة الوحشة في مناصب الدين فضلاً عن مناصب الديب، ومن أمثله أن أنصار الفرس بعلوا على أنصار الرومان في بيت المقدس، وكان أنصار الفرس يرشحون لرئاسة الكهنة انتيجوس بن أورشطولوس، فقضى هذا ببذبه على مراحله هيركانوس وقضى أدنه بأسدنه، ليحول بينه وبين وظيفة الكهنة طوي حياته، إذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين ونرى العاهات.

وكان في البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة ولحرم على رأس قبائل «بوميين» عرف بقرسنة وبعد نظره أن الكفة الراجحة في النزاع على فلسطين لدولة الرومان فاضوى إليها واستتمسك في معونتها. فكفاته على خدمته بتخصمه مكا على اليهودية والسامرة والحنبل حدث ولد الأسد المسيح، وكما أنهم هو بالنمادى في محاكاة المذبة الرومانية، ووجت إليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويدها السلطة الديورية في وقت واحد، فبغالى في الغيرة اليهودية التي كانت قبلته تدب بها على سبيل الإدارة والمجارة ويعلى في محاكاة الرومان والإعريق بالآرياء والمسكن والشارات والأسماء وتكمل بإمام بناء الهيكل على نفقته ثم تكمل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه «المترومنين» إن صح هذا التعبير، لعلهم يدرون شملته في محاكاة الرومان ومجادة التقاليد العرنة، كلما احتاج إلى التوفيق بين المعضين.

ومع هذا الجهد المضنى في التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو معضوب عليه أشد العصب من أعداء دينه، وحدث قليل وقته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبنيه وأنصاه لتمسح منها معالم الوثنية، فعقد لهم محكمة عليية وأمر بأجناده فحملوه إلى المحكمة، حيث قضى عليهم بالصرق وهم أحياء! وقبض على الزعماء المحبوبين محبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم إذا مات قبل إعلان

وفاته، لذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشمامسة فيه، فلا يتمتعهم في ذلك اليوم بالفرح الذي ترقبوه.

وتمت السيرة بتقسيم البلاد بين أساء هيرود الثلاثة، فوَقعت الجليل - حيث ولد السيد المسيح - في حصّة هيرود الثاني انتيباس، ووقعت اليهودية في حصّة ارخلاوس، ووقعت مشارف الشام في حصّة فيلبس، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك إلى روما ليتلقى عهد الإمارة من يدي القيصر، فهذا الذي يشير إليه السيد المسيح في مثله المشهور كما رَواه الحواري لوقا حيث يقول ما هو: «كان إنسان شريف السب ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع... وأما أهل مدينته فكثروا ببعضونه فأرسلوا وراءه سفارة يقولون لا يريد ملكا علينا..».

ولكن القيصر أقر الأنداء الثلاثة في ولاياتهم، وخرجت البلاد ممرقة بين أساء هيرود وحكومات السبطيين والمدن العشرة، وفصدت رومة بهذا التمزيق أن تحبف ولاية بولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم في مرضاهم، وبسخمهم جميعا درعا تدفع به عارت الصحراء وهياج المتعصبين.

ومن المتواتر - مع تصحيح تاريخ السيرة كما سيأتي بعد - أن السيد المسيح ولد في أعقاب ثورة جانبحة اشتعلت في أفليم فلسطين اليهودية على الخصوص وهدرت فيها دماء الأثوف من اغلالة وأندعهم لأنهم هبوا في وجه الدولة الرومانية محتجين على صنور الأمر بالإحصاء العام، وليس الإحصاء بطبيعته الحال سبب من الأسباب لإشعال نار انتزعة بين أبناء أمة مطبشة، ولكنه أشعل نار الثورة فعلا لأنه أشار بين الإسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل هسطين. إحداهما مشكلة الاعتراف بملك غير «يهوا» الذي يؤمن الشعب اليهودي أنه هو الإله وهو ملك وأن منابه الشعب لغيره كفر وحيابة يعاقبه عليهما بالضرب ولحن ولا يغفرهما له إلا بعد كفارة تضيق فيها الأرواح والأموار، فإذا دان اليهودي لملك غير «يهوا» أو غير مسجائه المحنارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب ولحرمان وقد حسب الشعب، لإسرائيل أن الإحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصريّة عليهم فرداً فرداً وبقيدهم عبداً للقيصر مطالبين بعبادته واحتاج لصلوات باسمه، وكان فقهاء اليهود يدعون للجزية وهي تؤخذ منهم عنوة من طريق الالتزام الذي لا يحص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكواد والأقاليم، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أسد الإنكار

ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك في تحصيلها ويبذونه من الجماعة ويبذون معه من يعاشره ويتحدث إليه. ولهذا دبّروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألكوه أمام جمهوره لشعب عن 'داء الجزنة هل يجوز أو لا يجوز' فأرسلوا إليه تلاميذهم من اليهوديين قائلين: 'يا معلم إنك صادق تعلم بالحق ولا يبالي أحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن؟' أيحوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا يجوز؟' فكان جوابه المشهور أروى معاملة لجزية! ونظر إلى الدينار الروماني فسألهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فلما أجابوه أنها لقيصر قل لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وأسكنهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة الفيصرية مع وجود العملة اليهودية، ولو كانوا يستكفون آداها حقاً لأنكروا كسبها واستخدموها. وقد كانوا يكسبونها ويسخرونها ما عدا طائفة العلاء منهم، وهي التي ثارت عند تقرير الإحصاء العام.

أما المشكلة الأخرى التي أثارها تقرير الإحصاء فهي مشكلة الضريبة وعسف الحياة في تحصيلها، فقد كان اليهودي يؤدي ضريبتين: إحداهما للهيكل، والأخرى للدولة، وقد جاء في الأناجيل أن رسل الهيكل كانوا يطبون صريبة من السيد المسيح وتلاميذه، وأنه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان: ما تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو حرية؟ أمن بسهم أم من الأحاسنة؟ قال له لتلميذ بل من الأجانب، فقال السيد المسيح إذن إن الذين أحرار.. ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الصريبة عنه وعن معه من التلاميذ.

وقد كان أداء صريبتين عبئاً فوق طاقة الفقراء، ولكنه - مع عسف في تحصيل صريبة الدولة - كان عبئاً لا يطيقه الموسرون فضلاً عن الفقراء، لأن الدولة كانت تحصل الصريبة بطريق الالتزام والمزايدة، فإذا حان الموعد السبوي منحت باب المزايدة ومنح صاحب المزااد الراجح حق التحصيل طوال العام، وكان الجباة أو العشاريون يأخذون لأنفسهم شيئاً غير الذي سلموه للصرب، وكان المتزيم يأخذ لنفسه شيئاً غير الذي سلمه لخزينة الدولة، فكان المال المحصل يربى على ضعفى المال المطلوب.

ولهذا كانت طائفة العشاريين مغيضة إلى الشعب وكان الشعب الإسمر تبلى لا يغتمر لأناس منه أن يتمرّدوا لقمة المتمرّمين الأحانب ويبتزوا المال حراماً من أرواق المعوزين، ومن ثم كان إنكارهم على السيد المسيح أنه كان يخاطب

العشارين ويدخل بيوتهم ويستمتع إلى مناجبتهم، ولكنه كان يستمتع لهم ويوصيهم بالأمانة في الجباية.. يسألونه يا معلم ماذا نعمل؟ فيقول لهم لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم، ويقول للجند الذين يصاحبونهم لا تظلموا أحداً ولا تشربوا بئحداً، وكنتموا بحالتكم.. لأن الدولة كانت ترسل الحدود بجمعهم طعامهم وعلائق معانيهم من الناس !

فلما صدر الأمر بإحصاء لعام توهم الدهماء أن الدولة لا تكنهي بما تحصله جملة وتنوي أن تريد عليه ضرائب تستوفيها من الأحاد فردا فردا مع الشطط في تحصيل ضرائب الالتزام، فاستجابوا بدعى أشورة من العلاة، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرراقهم، حين أمروا بالعودة إلى بلادهم ليسجلوا أسماعهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون.

ومما لا خلاف عليه بين مؤرخين اشرقيين والأوربيين أن الحالة السياسية في فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون، ولكنها على إفراطها في اسوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاحتفاعة في الدلالة على القنوط وعموم النلاء، وحسب القارئ أن يصفح الأناجيل كأنها ما كان اعتقاده فيها من الوحدة الدينية لكي تتمثل له حاله اليأس واليأس التي كانت تريس على القرى والمدن في أقاليم فلسطين، ولا سيما إقليم الجليل لدى تواترت الروايات عنه، فحسب سجن الإمبراطور رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهذه أحبار عن العجزة والمرضى الذين يعرضون لطب الشفاء بعد اليأس من كل علاج، وبين هؤلاء مشلولون ومفلحون ومجانين ومصابون بالخرس والمسموم ولعمري وييس المفاصل والأطراف، بينهم من يقال عنه إنه حسده تسكنه الشياطين أو يتذوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشباب والكهول في مختلف الأعمار، وهذا إلى أمراض البرص والبريف والصرع الذي لا يقترب بالجنون.

وإذا كانت هذه الحالات البارزة إلى جانبها ولا شك حالات أخرى بونها في الشدة والبروز تتم على الآفات الجسدية والنفسية التي فشت في ذلك المجتمع وتركتها مهيبض الأعصاب عرضة للسخط والهياج، ويضاف إلى هذا أن عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الأسمة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحاني ويعتمدون على قوة الإيمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج، وإذا قلنا إن عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيبض الأعصاب فحين

بلغت البقائنا خاصاً إلى هذه الظاهرة التي تشير إلى الحالة النفسية في
 جيمتها وليس أحوج من عصر كذاك العصر إلى السكينة وثقة لإيمان وبيس
 أشد منه تعطش إلى التسليم والتطهير من استراحت النفوس فيه إلى الهادي
 الذي يرحى على يديه التسليم والتطهير، فلم يأت أو أن الرسالة المسيحية حتى
 كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين،
 وقد كن أقوى هؤلاء الرواد يحيى المعتسل أو يوحنا المعمدان وإن لم يكن هو
 الرند الوحيد في طريق الرسالة والسيرة، فجعل لتطهير رمز من الاعتسالي
 بالماء وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك هيروود،
 فإلها النورة التي استبج فيها الفجور بالمحارم والبياء بهن على غير شريعة
 وقتل الأجرة والأناء وتنتيس العبادة والقداسة بالبذخ والفسادة على المنكرات،
 فكنت حسارة النبي على التطهير كفتل حسارة المدافعة لأتيم على النسس
 والحياة، وقصى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة في حملته الصراح
 وخرج من الميدان شهيداً يحر وراءه حثة ميت يقبذ الحياة، فإن جسد هيروود
 قد أكله الدود قبل دفنه، وإن عهدده قد وصف نفسه أصدق صفاته حين بنى
 رأس النبي هدية لراقصة مبدولة لجسد، ولا جرم يكون عصر «محنى
 المعتسل» عصر رسالة عاجلة أو عصر رتباد وتمهيد هجمة من هبة وهجمة
 من هبال، ثم تبدأ المعركة التي تستوفي الميدان كله، ولا ننسى ما بين صباح
 ومساء.

الحياة الدينية في العالم

في عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها، وبخلت في حورتها أعم العالم المعمور كله، ما عدا الشرق الأقصى، وأصبح من رعاياها أساس محققون في الجنس واللغة والعقيدة، فشوهت في رومة والإسكندرية وبابلس وبيت المقدس كل عبدة بدين بها البشر من محوم الهند إلى الشواطئ الأطلسية وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدرس الحكمة والعلم إلى الإسكندرية وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة، ونعوى الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والناسم والمطالب الروحية.

واعظم من هذه لبطرة لعالية أثراً في موضوعنا - حياة المسيح - أن عصر الميلاد قد شهد هذه موحدة دينية تجرى من أشرق وعمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها أعصمه الكبرى، خلافاً لما يسبق إلى الظن من غلبة العفند تبعاً لعبية لقوة السياسية.

فلم تكن سيده الدولة الرومانية على الشرق مقدمه لسيادة لديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من أطرار التاريخ بل حدث على مقيض ذلك أن عقائد الشرق هي التي عبت على رومة وتناعها، وهي التي أنقلت من الأمم المحكومة إلى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فتم تكن استثناء من هذه القاعدة بل كانت تطبيق جديد لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها.

وليس في الأمر مخالفة للسفن الطبيعية كما يصر إلى الدهر لأول وهنه فإن سريان العفاند من الشرق إلى العرب في تلك المرحلة كان هو السبب الطبيعية التي تؤيدها جميع الأسباب ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل.

كان اتحاد النحل الشرقية موافقاً للقياصرة وموافقاً للرعياء في وقت واحد، فقد كان القياصرة بطمعون في الربوبية وكنوا يسمعون أن كهان المعابد في

الشرق يعلنون حلول الآلهة في أجسام الملوك، ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المادة بالإسكندر ابنا للإله «أمور» خسرا يقتله المطلقون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويهتج مثل فتوحه وحر هذا المطمع العريب إلى فتنة عنيفة في وطن السيد المسيح حين تصدى الملك اطيوحس خليفة الإسكندر بطلب الربوبية ومعنى نفسه بالإلهي أو صاحب الشرة الإلهية.

وقد كان دعايا الدولة الرومانية خليطا من الشعوب المختلفة، وسرى هذا الاحتلاط إلى الجيوش التي كانوا يسوقونها إلى المشرق ويتركبوها فيه زمث ثم يتعمسون إبقائها ثمة بعض الأحيان ابقاء لئلا عانها كلما أطالت ابقاء في العاصمة، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومه أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشاركة كما حدث في عهد الإسكندر وأن يطلب الربوبية من القيصرية !

ولم تزل سمعة الشرق عند العربيين منذ القدم انه هو مهبط الأسرار العلوية وأنه تعلم من خبير السماء مالا تعلمه الأمم العربية، وأن كهان لشرق سحرة يطلقون على لعب وبعثون إلى موطن الديابات وكلمة السحر عندهم Magic مسوية إلى المحوس، والسحر اببلى في كل لغة مصوب امثل من الرمن القديم إلى الرمن الحديث، ونوفيت الزمن بالاسابيع التي يسيصر كوكب من الكوكب على كل يوم منها ثراث شرقي موغل في القدم، لا تزال بقاءه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها مادامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون، ويحبسون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !

لهذا زحفت على العالم لروماني حمله «مثرا» ونحلة «إيريس» ونحلة المنتطسين كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانية من سيبا الصغرى، ومرجعها هي أيضا إلى لشرق القديم.

وقد شهدت آثار العبادة المثربة في أقصى قطار الدولة الرومانية من المغرب شهدت هي آثار السور الروماني للبلاد الإسطيرية كما شهدت في غيرها، وشاعت العبادة بين شبان الحيش لأن «مثرا» كان شخصية مربوحة تجمع بين صفتين محبوبتين إحداهما صفة النور لدى يبدد الظلام والحق

الذي يمحى السطر، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذي قيل في كنف المحوس المعروف بكتاب «لافسيا» أنه يسوق جحافه منتصرا لتغليب له لحير أورمزد على إله الشر أهريمان، وهو كدات إله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل، يعبد الرعاة والملاحون ويهيمون بنوره في أعينهم البلية، ويعتقدون أنه يولد في الجسد الآدمي كما يولد الفراء في كهف مهجور، ولهذا يتخذون له المعبد من الكهوف وربما حنبله إلى العباد ذلك، لتحيز اليهود في لباس إلى سيطرة الأسرار ولطموح إلى الترقى في درجات العلم بالمجهول، فقد كبت لعباده درجات سبع يسفلون فيها من درجة إلى درجة على أيدي الأئمة الحيارين، ويتعاطون الشعائر في كل احتفال سرا أو جهراً على ملا من الصفوة المقربين، ومنها تناول الخبز وعتار الشهد المقدس لدى يوضع على اللسان رمزاً إلى حلاوة الإيمان.

وامرئت نحلة «إيزيس» المصرية بنحلة (مئرا) لفارسية في غزو بلاد الرومان واليونان، فسماها اليونان «ديمتر» وتخلوها صفتها المصرية وهي صفة الأمومة الكبرى أو صفة الطمعة الأم، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثمرة البحر والملاح، ويرسمون لها صوراً جميلة ترم على لطهارة والحنان وفي حضنها طفل رشيع يشع النور من وجهه رمز الأمومة والبراعة، وكان كهدها يحلقون رؤوسهم في العرب محاكاة للكهنة المصريين، وكان لها عبيدهم عابدون وعبادات بسمونها حامية البيت والأسرة، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بنفاليذ الأسرة وتقديس حقوق الآباء، ولأنك أن المراسم السرية التي تلازم نحلة إيزيس كان لها أثرها في تشويق الناس إلى بتحابها كم كان لها مثل هذا الأثر في عادة مئرا وم شابهها من العبادات.

وخرحت من مصر أيضاً نحلة قوية على قلة عدد المتحمين إليها، وهي نحلة المنتطسين Therapeus التي ذكرها الحكيم الإسكندري ليهودي قتلون، وكان إن ابتاعها كابوا يجنمسون يوم السبت ويتفرسون بعد ذلك في الصوامع للتأمل والدراسة لفلسفة ورياضة الروح والجسد وأسمهم اليوناني معناه الأساة أو المنتطسين، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الإسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة ويظن بعض المؤرخين أن هؤلاء المنتطسين هم أساتذة السبال اليهود الذين يسمون الأسين أو الأسيفيين، وأشرنا إليهم في الكلام على فرق اليهود.

ومما يلاحظ أن فحلة «أورفيوس» اليونانية لم يكن لها من الأشياء بين
الرومان ما كان يلحل الشرقية الخالصة، ولعلهم كانوا يحسبون «الأسرار»
الدينية اختصاصاً للشرق القديم ويرجعون إلى اليونان في مسائل لفلسفة
والفن والخطابة، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة «الأورفية» إلى ديانة شرقية
بحري على سبيل الشرق في التفشي والأخوة الروحية، وقد نشأت الأورفية
ليونانية بشأه قديمة، وقيل في وصف «أورفيوس» أنه كان يعزف على أوتاره فيقبل
عليه الوحش واسم الطير وتنسى صراويلها وهي تصق إلى ثم أصبح لتأليف
من الصواري والنعيم رمزاً إلى السالكين بين القلوب وانتزاع البشر من نفوس
الأنبياء، وجاء عصر الميلاد والأورفيون يديون بالرهة والتفشي ويحرمون
الحموم ويلبسون ثياب البيض ولا ينوقون الخمر إلا في مراسم القربان،
واحتفظوا بعقيدة اليونان لأقدمين في أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا
أنه يرور عالم المهوى ويعود منه، وحصلوا لهم موعداً يحزنون فيه على موته
وموعداً يحتفلون فيه ببعثه، وبشابه الاحتفال ببعثه، والاحتفال ببعثه أندونيس إلى
الربيع، وكثيراً ما قيل في كتب المقابلة بين الأديان أن آمون الإله المصري
وأوديس، إله اليوناني وأوباي بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية أسماء عدة
ترجع إلى مصدرها المصري القديم.

ومن الواضح أن هذه البطل التي كانت مصطفى الأعضاء والمريدين وتحفظ
بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن دسات عامة ببشر لأمم كافة
بظواهرها وخوافيها، وإنما كانت هي جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التي
تصم إليها المشتعين بقرص واحد أو المتفقين في المزج والعصفة، وكنت أقرب
إلى الجماعات الغيبية لرياضة التي تقوم على تحريم الأنواق وتوحيد العلاقات
بين الأشباه واسطراء، فكان طلابها جميعاً من الشبان الذين يستسلمون حقائق
حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون أن هذه الحقائق سر من أسرار العلم
والدرية يهديهم إليه الحكماء المحرمين المربين وكان لها صلاب من الكهول
والشيوخ بطلت عقيدتهم في الشعائر العامة فأنصرفوا عنها إلى حيث يتفلسفون
الصفيفة ويشعرون براحة لصمير في جو من الألفة والهدوء المصالح النفسية
و لفكرة، فمن لم تكن هذه لحل عنده حلقاب رياضية أو غبية فهي عنده بمثابة
الأساية التي تصون روادها من الأحلاط و«الأعبار» ولا سيما الأعبار من ذوي
الحاله والإسفاف.

وتكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر ميلاد أنها «أولاً» علامة على طلب الاعتقاد وإحساس المخلصين المستعدين للإيمان بما يحيط بهم من الحواء في جو التقاليد والمعتقدات.

وأياً «ثبناً» علامة على التوجه العالمية التي أخذت تسرى في أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة ولم تكن محرمة على أحد من أهل جنسه وأصله، فكل من يفتح وحدانيه لعفنديها وإلهها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيراً بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها. وكانت على أدائها سائرة في عاداتها ومألوفاتها، ولكنها لم تحفل في هذه العادات والمألوفات من وجهة عامة ترع الهوارق بين أتباع الديانات المختلفة وتصممهم جميعاً من حين وحر إلى محافل لأعلاء العامة التي تقام لهذا «الرب» أو لملك «الربة» أو يردد في موسم الطبيعة بصيغتها التي كانت يدرج بالدين على عادة الأقدمين، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساهل هذا الشعور من تشجيعه وتحص عليه، إذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الصبر واللعب بين يديهم، ومن اللعب الذي لا يكلف الدولة شيئاً أن يقرح جماهير العامة بالألعاب وتتسابق في المواسم والمولد وتصيغها كما تشاء بصيغة لغوية، فذاك أسلم من التنازع والفتنة والصدام.

وحملة ما يقار عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور أنها كانت حياة تقيد أو حياة نطع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبيئة، أنفة من عقائد التقليد، وأنها كانت تجري في مجراها إلى «العالمية» التي تهم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جبرها وأصلها، وأهم من هذه العالمية في النحل والمحافل «عالمية» في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون، فقد كان العبرانيون يؤمنون أن العبرية هي لسان «يهوا» الذي يخاطب به الأنبياء وينجي به الكهان في المحارب، فلم يمتثلوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا إلى كتب الوحي باللغة الآرامية، وما مضابها من النهجات السريية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بمرحمة السوراة إلى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها في عصر الميلاد وما

بعده، فكانت الآرامية هي اللغة التي بشر بها المسيح وإتلاميذ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل، وكانت السريانية لغة السور، والإنجيل معاً ولما بقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح

وأهم الطواهر التي تسجل في سبق الكلام على الشؤون الدينية العامة قبل الميلاد أن العقائد الوثنية كانت هي حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الإفلاس، فقد روى المؤرخ سسوينوس أن القيصر أوغسطس جمع في سنة (١٢ قبل الميلاد) قرابة ألفي قرطاس من ثبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والإغريقية وأمر بها فأحرقت علانية واحتفظ بقليل من المحفوظات الماثورة ووضعها في صندوقين مذهبين ونقلها إلى معبد الإله أبولون، وفي هذا الصبر خلاصة أخسر العقائد الوثنية في ذلك الجيل.

الحياة الفكرية

في عصر الميلاد

كست المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الحين حيث ولد السيد المسيح، وحيث احتلظ الغربيون والشرقيون كثيراً قبل عصر الميلاد بنصفه قرون، وأكثرها الفيتاغورية والأبيقورية وأروافيه، وهي التي تعني فضلاً عن شهرتها، لأنها هي المذاهب التي تتخص بالسلوك ولاعتقاد ومنها مذهبان طهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح، وهم الأبيقورية والروافية، فإن هذين المذهبين - على تنقصهما - رد فعل لحياة واحدة عمرت البلاد اليونانية بعد انصارها على الدولة الفارسية، وهي حياة الحرف والتدح والبهو والطعان من جانب السادة وحالة النعمة من جانب العبيد واسحرين.

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في عادة واحدة هي طلب السكينة والراحة، إلا أن الفيتاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت أقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان ومصريين والعرب والهنود، وهي حميدة أقرب إلى ليشاة الشرقية، لأنها تشأت بين قبرص واسيا الصغرى.

وقد كان أنبا ع فيثاغوراس طائفة تجميع في «أخوه» ذات شعائر وصلوات، بعضها معقول وبعضها من قسوس المحظورات وأحرمات التي تشع بين القبائل البدائية ويسود عنها عادات مقدسة أو امتناعاً عن بعض العادات، وقد كانوا يعتقدون في ربسهم فيثاغوراس أنه ابن الإله «أبولون» وأنه لم يموت وسيبعث بعد حين. لأنهم يؤمنون كأهل الهند بناسخ الأرواح، وأن الروح في الصند عريضة تلمس لكك ولا مكان لها بمغير صالح الأعمال، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك كل الفول ويستحسنون احناص القول على العموم، ومن محرمانهم العجبية ألا يأكلوا من رعيص صحيح وألا يستقطوا شيئاً وقع على الأرض ولا يقطعوا ازهر من الشجر ولا ينظروا في المرأة إلى جانب النور، ومهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون أنهم يخاطبون أرواحاً

سكنها إلى حين، وعندهم أن الناس درجات؛ بشر ونصاف من بشر وألهة،
وفيثاغوراس أحد هؤلاء.

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء في أخوته ويوجد المشاركه في
الاقوات والمقننات التي تصل إلى أيدي الجماعة، ويؤمن أنبأه بعد موته بأنه
يلهمهم الكشوف العلمية ولقد هم عضات الحكمة والخلائق الحسنة وأن الحياة
كنت «فرجة» عنده وهي كذلك عند من يشبهوه، فاعالم في رأي الفيثاغورس
كساحة الألعاب الأولمبية، يقصدها أناس للنكس وهم أحسن الرابرز،
ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك، ويقصدها أناس لفرجة وهم أرقى منهم
جميعاً، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون الدائم للتأمل وانظر هم أرفع المتكسبين
والمقنازين على جوانر اميدان.

والأفكار الفلسفية نفسها هي وحى من الله، ويردون اشتقاق الكلمة ثيوري
«Theory» إلى اسم الله ثيوس Theos باليونانية، فكل حكمة عندهم فهي من الحكمة
الإلهية يتلفها، لماحت بالرياضة والمباحاة «والانسحاب» بينه وبين موسيقى
الكور، والكور كنه عندهم بسب عديدة موسيقيّة وصورة كماله عدد الأربعة،
ولعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التي تحلق منها جميع الأشياء.

وقيل أن بهم أعرض سياسييه وإيهم كنوا يحامرون على الدولة في اجتماعتهم
السرية وقد عاش فيثاغورس في القرن السادس من الميلاد وساح في بقاع العالم
المحصور كله، وبقيت نحلته أو أخوته في جميع الأقطار، ولا سيما الأقطار التي أقام
فيها اليونان مستشرقون.

أما الأبيقورية والرواقية فقد ظهرت في عصر واحد، وانتشرت بين متقنين في
جميع أنحاء العالم المعمور ويبدو عليهما أنهما متناقضتان ولكنهما في الواقع
متقربتان أو يمكن أن تتقاربا عملاً على حسب لتفسير والسكول في المعيشة.

نشأ أبيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد، ولد على الفول
الأشهر في حريرة ساموس على مقربة من شواطئ آسيا لصغرى، ولاد
بأسما الصغرى مع أهله هرباً من الاضطهاد، وقد أقبل على دراسة الفلسفة
وهو في نحو الرابعة عشرة، ومنتج مدرسته في حديقته المشهورة بأتينا سنة
٢١١ قبل الميلاد وهو في نحو الثلاثين.

وإذا قسيت فلسفة أبيقور على معيشته لشخصية فهي حياة سناك متقشفين،
لأنه كان يعصى معظم أنامه على الخبز والماء أو على لحمز ولحي، لكن اسمه

اقتترن بالذات والشهوات لأنه كان يعصم تلاميذه أن السرور هو غاية النجاة وأفضل السرور ما لم يعقب ألماً ولا ندماً، ولهذا كان يجنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور «المتحرك» وهو السرور الذي يقتترن بالجهد ويعقب التذامنة والعناء، وقد كان يقسم السرور إلى نوعين: سرور متحرك وسرور مستقر أو ساكن، وأفضلهما كما تقدم سرور المسكينة والاستقرار ويعنى به سرور التأمل والراحة والقناعة.

وكان أبيقور يقبل في مدرسته العبيد والراقصات والمأخورات ولا يرى حرجاً في طلب السرور حيث يوجد بريقاً من الألم والندم، من لا يرى كيف يتخيل الحكيم «الجر» إذا أخرج من حسابه مسرات الدوق والنظر والسمع، ومن أعرض عن سرور يستطيعه في غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم

وقد أثنى أبيقور على الديانات اليونانية وعبرها من ديانات زمانه أنها محشوة بالحرافات والأكاذيب، وعلم تلاميذه أن الآلهة موجودة ولكنها مشعولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قصاء، ولا فرق عده بين الأرباب والمخلوقات إلا في لطافة المادة وبقاوة التركيب فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود..

ومن هنا كان يقلل كل تفسير لطواهر الوجود يرجع به إلى الأسباب الطبيعية، ويرفض كل ما كان مرجعه إلى الأرباب والعيوب، ويواجه الموب نفسه على مذهبه في السرور ولألم، فإن لم يكن في الموب مسرة فهو خلاص من الأم الحياة، وبهذا شاع مذهب أسقور في عصور لشك وإسماء وفهدان اليعين والإيمان بالعناية، وفضله المكذبون بالديست على مذهب الرواعيين لأن الأسقورية - خلافاً للرواقية - لا تعفى أصحابها من التكليف ولا تفرص على عقولهم أو ضمائرهم واجباً يتقل على كواهلهم، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدهم ووصاياهم في أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التي يستظهرها المريد وترسمها ترسم الإيمان والعبادة.

وإذا أردنا تلخيص المذهب الروافي في كلمتين اثنتين فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة

الصبر على الشدائد والعفة عن الشهوات، ولا سعادة للإسمان من غير نفسه وصميره، فمن راض نفسه على مغالته الألم والحزن وقمع الشهوة ولهوى فقد

بلغ غاية السعادة المقنونة لأبناء العناء، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون أن الكون كله نظام متقسق يجري على حسب المشيئة الإلهية، والوحى والرؤيا والفعال وطولع النجوم من وسائل العلم بأسرارها وحفاياها، ويؤمنى الإنسان بأن العقل مع الآلهة وبأنجسد مع الحيوان الأعجم، وفصيلته الإنسانية هي أن يطيع العقل ويعصى الجسد، وعصاياه الحسد هو مقاومة الشهوات، وطاعته العقل هي طلب المعرفة، وسعادة الإنسان كلها هي السعادة التى تنهى له من الاستعناء عن الشهوة وتحصيل العلم، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فصول لا خير فيه.

وقد مشأ الروافضون الأول ماديون يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد، ولكهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده إلى الإيمان بحرية الروح هي مواجهة لمادة، فالإله الأكبر «ريوس» لا يستطيع أن يجعل الجسد حرّاً من قيود المادة ولكنه يعطى قيساً من روحه الإلهية نصيح بنعمته إخواناً لا يعرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة وأينب يكونوا فهم مع الله، لا حاجة بهم إلى هيكل أو معبد، هبما القداسة فى النفس التى تعبد وليست لقداسة فى مكان للعبادة يصنع البناء والحداد. ومن صلواتهم الصلاة المشهورة، التى أثرت عن رعيهم كليبنتس قبل الميلاد (٢١ - ٢٢٠) حيث يناحى ريوس قائلاً « هدى ب ريوس، ايها القدر خذ سدى إبنى حيث ردت ان ترسلنى، خذ ييدى أنعل عير مكس ولا وحل فبن خامرى للريب فأحجمت ونريثت فمن اتبعك لا مهرب بى ولا نجاه »

« يسع الرواقى طريق لقدر لأنه هو احير وليس هو الضرورة وكفى فإن الاله الأكبر لا يرب شراً ولا يحنقه، وما هذه الشرور التى فى الدنيا إلا نقائص محنومة يستلزمها وجود الخير ولا يفعل الخير بغيرها فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشمع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة، وإذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحرز والنعم ليست بالقضيلة الإلهية، وإنما تكون الرحمة فضيلة إذا تنصرت كما يتبصر الإله فى قضائه، فتتكر القسوة ولا تخضع للحرز والنعم بغير حيلة، فإن الحكيم يحمل فى حكمته تريق كل سم وبواء كل بلاء.

وقد أخذ الروافضون من الهند - بسبيل ميتاغوراس على ما يظهر - أن العالم ينقضى ويعود فى دورات أبدية لا تعرف لها نهاية، واعتقد بعضهم أن أرواح

الحكماء تبقى هي كل دورة إلى ههينها، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق ابدى الأبدية وهي النار التي تظهر جميع الموجودات لتخلص من أوشبها ثم تعود نواليت في وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامه بعد قديمة.

والمدسة الرواقه بأسرها مدنة للأمة الشرقيين ولا سيما القطين الكبيرين هي هذه المدسة زينون (٢٤٠ - ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزينيون (١٣٥ - ١٠١ قبل الميلاد) فهم جميعاً من لفيفيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن في البلاد الشرقية، وخلاصة مذهب الإمام الروافى لأكر - ربيون كما لخصه في كتابه عن الله «إن الإله جوهر بومادة» Soma و أن الكون كله هو قوام جوهر الإله، وأن الإله يحلل أجزاء الكون كما يتحلل العسل قرص الحلات، وأن الناموس Nimos - وهو عبارة أخرى مرادف للعقل الحق Onthos Logos، والكلمة الحق - هو والإله ربيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون، وكان ربيون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد كما سلفه أن الفلك ينهى بالتحريق ويستكن في ناره جميع خصائص الموجودات لفظه وأسمائها ومقاييرها، فعنونه كره بعد كره بفعل العن وتقديره ويشملها قصاء مبرم وقنون محكم كأنها مدنية يسهر عليها حراس الشريعة والنظام، ويتردد عنده معنى الله والعقل والقدر وربوس، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد، وقد كان هذا الموجود الواحد منفرداً لا شريف له فشاء أن يخلق انديا فأصبح هواء وأصبح لهو ماء، وحررت في الماء مادة الحلق Sparmatikos Logos كما تحرى مادة الوليد في الأحياء، فبرز منها مبدئ الأشياء، وهي البر والماء والهواء، والثراب، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادئ على التصريح، وتعريف القدر عند زينون أنه القوة التي تحرك الهوى، وهي قوة عاقلة، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يجرده منه، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عقل لأنه عظيم ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة لمكائره فعدوها وبسجوا حولها الأساطير من تشبهات الخيال، ولكن هذه تشبيهات إن في إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية».

وأخر الأقطاب الرواقين قبل الميلاد بوزينيون الذي شرب إليه كان يعلم بتلاميذه أن الأرواح لا تبقى بعناء الجسد وأنها ترتقى صعوداً في أسماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض ومنها ما يحق بين الأهللاك العلى ويسبح معها ويجمع بالنصر إليها

والاستماع إلى ألقائها في مسراف إلى يوم القيامة. وقد كان هذا الحكم معيباً بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معيباً به في بحوثه الفكرية الدينية، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب «لرواقيون والشكوكيون» Stoics and Sceptics إن المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة، وهي مقياس يوناني يساوي نحو مائة وخمسة وسبعين متراً، ويقال إن هذا التقدير كان في حساب كوسس عسما قصد إلى الهند من طريق البحر الغربية.

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذي أعقبته المذاهب الرواقية في العالم الروماني إلى أقصى أطرافه، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك ولأرقاء بعد ظهور إمامه لأول - زينون - بنحو أربعة قرون، فكان من أئمته العبد الرقيق ابكتيس (٦٠ - ١٠٠ بعد الميلاد) والإمبراطور الكبير ماركس أورليوس (١٢١ - ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء إلى هذا المذهب قادة ورؤساء من النجس زاروا الشرق وأقاموا فيه.

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الأسقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الإسرائيلية كأنهما ريس من أزياء لثقافة التي يقرأعي بها أدعياء العلم والمدنية، فكان الصدوقيون يميلون إلى الأسقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأحانب، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصيب بطلهم بالصيغة الوطنية التي لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها تمشياً مع نزعته إلى التجديد.

ومن المصائد التي تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية في العالم الإسرائيلي أن عصر الميلاد أحب أكبر الفلاسفة الإسرائيلية في العصر القديم وهو يهودافيلون، الذي ولد بالإسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعد الميلاد) ومرج هي فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل مذهب ولا سيما من الإغريقية الإسكندرية. وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقسطس أول القائلين بها في الزمن القديم، وقال إنها هي واسطة الله في علافته بهذا العالم وأخذ تفسر الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة إيزيس وعبادة اوزيريس سرافيس التي أسست بالإسكندرية وتبرعت هي أثيث ويومس وروما وبعض المراسم الأسيرية ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحاً عقلياً يخالف في كثير من المسائل شروحها

التقليدية، وقار في كلامه عن خلق العالم إن موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كئسوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم في الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح، ولا بأسلوب كئسوب أصحاب الشرائع المبهمة التي محيط بها لالعاز والرياءات، و نه روى قصة الحليفة روية تتضمن أن الدنيا مصابغة للنظام (أو الشريعة) وأن النظام مطبوع للنبي، وأن الإنسان الذي يسمع الصوامع موطن صالح للعالم كله، يسير في عمله وفقاً لشئنة الصلعة التي تسير الدنيا كلها وفقاً لشئنتها.

وقد كان ميلون رواقياً على حافة الأنيقورية، فقال في كلامه عن إبراهيم مفسراً اسم إسحق «إن معنى إسحاق في لغتنا الصالح، ولكن الصالح هنا غير الصالح الذي يأتي من سرور الجسد، فهو سرور المعرفة الصالحة، هذا هو الفرح، هذا الفرح الذي روى لنا أن الحكيم إبراهيم قدمه قرباناً إلى الله مبيناً ذلك في هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده. إذ الإنسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاصرة والموقعة، ومن الحزن ولا الخوف من طبيعة الله».

ومذهب فيلون في الصلاة أن الإنسان يصلي شكراً لله على ما في الكون كله وحلائقه كلها ومنها بنو اسم جميعاً رجالاً ونساءً ويومان وبراره، ومنها ذات المصلى جسداً وروحاً ومصطفىً وعقلاً وحسناً، فإن الصلاة على هذا المثال جذيرة أن تستجاب.

وينقسم الإنسان عند فيلون إلى ثلاثة أقسام ولید الأرض، ولید السماء، وولید الله، ولید الأرض من يطلب متاع الجسد، ولید السماء من يطلب متاع الفكر، ولید الله من تحرر عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من القاء براء من المادة، في زمرة الهداة والمرسلين.

وليس فيلون من دعاة العزلة في الصوامع، لأن اختلاف المكان لا يمنع شيئاً وإنما الحير كله من الله حيث كن، وهو كائن في كل مكان يهدي ركاب الروح إلى حيث يشاء.

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرايين كما قال في كلامه عن الشرائع الخاصة، «إن الله لا يفرح بالضحايا ولو حسنت بالثبات لأنه مالت كل شيء ومعطى الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بحبر الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفاس والدخان، بل من تقدم إليه بنفسه لا

يحتقِب شئاً عبر الصدق وخلوص النية نكرم عنده ممن يبدل الأموال وسىء الأقوال والأفعال».

وقد كان قبلون عملياً بخاطب بنى الإنسان كافة، وكان يقول إن إسرائيل إنما سُمي بهذا الاسم لأنه ينظر إلى الله، فكل من نظر إلى الله إسرائيل ولكن هذه الدعوة انعاسة لم يصرفه قط عن العصبية القومية، ولم يبس قط في كلامه عن بني إسرائيل أنهم هذه الأمم، وأنهم أحق عشائر الإنسان بإعجاب جميع العشائر، فإن الآثيين يرفضون شعائر القدموبيين، كما يرفض القدموبيون شعائر الآثيين، ولم يعهد في المصريين أنهم يأخذون بتقاليد السيثيين، أو هي السيثيين أنهم يأخذون بتقاليد المصريين، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل أسيا وأهل أسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة، ولكن اليوم السابغ الذي يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من أشهر احرام هي عرف الإعريق؛ إذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالإفراط في الشراب والطعام وشهوات الأحسان، وبشئ هذا من موسم الصيام عند بنى إسرائيل.

يقول هذا عن قومه، هي كلامه عن حبة موسى عليه السلام، ولكنه يقول في كلامه عن الشرائع الخاصة أن إسرائيل بين الأمم كالبييم لمصنع بين الغريباء، لا يأخذ بناصرهم أحد إذا تألفت الأقوام وتعصبت العشائر، وديهم عند الناس أنهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون هي المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والبرمت بغيض إلى النفوس. ومع هذا يقول لنا موسى إن يتم إسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبر الكون الذي وقعت إسرائيل من نصيبه وبرزت من العالم كما تقرر بواكير الثمار هدية للصدق والآب الرحيم».

تلك غاية الشوط الذي انتهى إليه مسون في زمعه ولا يعتبر قبلون من الأئمة نوى الاتباع في الديانة الموسوية، ولكنه يعتبر نموذجاً صالحاً لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين في أوئل عصر الميلاد.

الباب الثالث

تاريخ الميلاد

أرض الجليل

ولد السيد المسيح بأرض الجليل - أو جليل الأمم كما كان يسميها الإسرائيليون، لأنها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية، ولم يخلص سكنه للإسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان.

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة الإحصاء، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب.

وكانت الجليل جزءاً من أقاليم الشاطئ الشمالي التي عرفت في التاريخ القديم باسم كنعان، ثم أطلق عليها اليونان اسم «فينيقية»، من اللون الأحمر عى ما يظهر، وهو لون الصخور والحبال.

وقد امتازت كنعان قديماً بالموانئ الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض إلى خليج فارس إلى أقصى المشرق واشتهرت في هذه الموانئ صيدا وصور وحيفا، وكانت تجارة المشرق والمغرب تنحصر في صيدا وصور، لأن الشواطئ الجنوبية خفت في الزمن القديم من الموانئ الصالحة، ولم يكثر بها مساكن مطروقة للبحر عبر مسالك الصحراء وهي يومئذ قليلة، لأن كثرة الكاليف.

ولهذا الموقع الفريد جعلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة في المشرق والمغرب، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الآسيوية، وراجت فيها الصناعات والمعارف العظيمة والبخرية، ولا سيما المعارف التي لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكوكب والكتابة، حتى توترت ان تحار الفينيقيين وملاحبيهم هم الذين نشروا الأبجدية في بلاد البحر الأبيض، ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الأوروبية.

وقد دخل بعض بلاد الجليل - أو كنعان - في مملكة داود بعد إنشائها، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على النوام علاقة حذر وجفاء إن لم تكن علاقة حرب وعداء، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعربوا عليهم في الصناعة والتجارة، وجاء في العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان في

تشبيد الهيكل والتصور اليهودية، ومن ذلك في سفر الملوك أن سليمان أرسى إلى حيرام ملك الكنعانيين يرحوه أن يأمر بقطع الحشب لباء الهيكل ويقول له «إنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الحشب كالصينيين»^{١٠} . ومنه وصف المهندس الذي كان أبوه من صور وأمه من سبط نفتالي «وكان ممثلاً حكمة وفهماً ومعرفة لكل عمل في القدس».

وقد جاء في الإصحاح السابع وعشرين من سفر حرقبيل أنهم كانوا ينجرون بالخدمة والعمل والرب ولبسان و لحوى وغيرها من منغولات الأمم الأخرى

واعتمد اليهود على الكنعانيين في مشئون الثقافة والفن، ولم يسه اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة، فنقلوا عنهم الكناية وأوران الشعر وأشيد الصلوات، وحدث غير مرة أنهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها إلى عقيد الكنعانيين، وإلى ذلك يشير العهد القديم في سفر القضاة حيث يقول «وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا العظيم، تركوا إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر» وإلى ذلك أيضاً يشير العهد القديم في سفر الملوك الأول حيث يقول لبي إيل «إن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقصوا مداخلك وقتلوا أسبغك» إلى أن يقول «وقد أنقست في إسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله»

ولما تكثر عدد اليهود المقيمين في الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة، تغيرت عاداتهم ومآثور تهم وبظر إلها أئب اليهودية نظرتهم إلى الخورج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا العرباء على عاداتهم وأسابهم، وكان الواقع أن أهل الحبل خاصة تعوبو الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سورية الداخلية، أو بالسودسة، وهي لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى، واقتبسوا كثيراً من مآثورات الفرس و الهند والعراق، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية، ويرجح بعض المؤرخين أن العبيقيين الأقدمين جميعاً كانوا من قبائل الحليج الفارسي التي حلت عنه وبسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطئ بحر الروم وضلت محافظه بعد ذلك على عملاقتها بالبحار الشرقية

(١) الإصحاح السابع من الملوك الأول.

وسبق من بعض أهل اليهودية لأثناء ملتهم في لشمال أن «حت هيرك نوس»
 المكابي أعار على الأفليم الشمالية، ومنها بلاد في السامرة وبلاد في الحليل،
 فعاد من فيها من اليهود إلى الجنوب وحير المقيمين في لشمال بين الهجرة
 أو قبول الختن وشارات اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم
 وجداهم أو من أبلاد التي استوطنوها منذ زمن طريل، ولت لسامريون
 مفردين بتقليدهم، ولت أهل الحليل متهمين محظوراً إليهم بعين الرسة
 والاستغراب

ومما انفقت عليه أقوال المؤرخين وتروى كثيراً في روايات التاريخ أن حميرة
 كبيره من أهل الحليل كانوا عرباً يتكلمون الآرامية ويلفطون عبرية بلهجة
 أعجبية يلحسها أهل الجنوب ويميزون المتكلم بها من كلمات قليلة يسر منه
 عرضاً على غير روية وكذلك عرف الصواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في
 كل فلسطين

وقد كن من الأمثال لسائرة على السنة اليهود المبعصين لتقليدهم وعاداتهم
 «نه لا خير يأتي من الحليل» وفي إنجيل يوحنا أن تشدليل عجيب حين قبال له
 صاحبه «ابن وحدد لدى انبا عنه موسى» وأنه من الناصرة في الحليل، فأنشاه
 مستغرباً «أمن الناصرة يجيء شيء صالح»^(١)

وفي إنجيل يوحنا أيضاً يروى عن رجل الهيكل أنهم كانوا يقولون متهمين
 «إنه لم يقم ببى قط من الجليل»^(٢).

كانت السماحة لأسبى وقلة النحر هما سبب هذه البقمة على الجليل وأهلها
 هي بفرس أند، اليهودية المنكرين لكل سماحة ولجامدين على كل حرج، ولكن
 هذ السبب بعينه هو الذي جعل أرض الحليل اصلح منبت للدعوة الإنسانية
 انى ترقبها العالم في ذلت العصر، فب كن من ايسير أن تنبثق دعوة الإخاء
 بين الأمم في كف الحجر والجمود.

وقد تنفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الحليل خرجت من
 سلطان ملت اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير، وأنها دخلت في وئادية
 المحورة لها في مصيب ابنه هيرود انساس وربما كن عليه السلام في العشرة
 من عمره حينئذ هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد، وبنت العاصمة الجديدة

(٢) الإصحاح السابع.

(١) الإصحاح الاول.

١٠ رية على . قرية من الناصرة حيث نشأ عليه السلام، ولا شك أنه في محبة العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التي تقدمتها وأعقبها بعدها ما أعقبته من جرائرها، وقد كانت مشكلة النعصب أو مشكلة السماح الدينية حديث صباه وأول ما طرقت مسمعه من مشكلات سياسة والدولة، ولما سميت أعضائه الجديدة باسم العافى الروماني طيبريوس يسمع ولا شك تعقيب الكبر على ذلك التلق الروماني وشهد العبد من نوى السياسة والإمارة قبل الألوان، وأدرك أن العواصم تهتم وتبني، وأن الدول تتولى، وأن الطغمة يتزلف والمتزلف يطغى، وأن مجد الرياء زيف وخواء، فسيحت نفسه البريئة في أفق غير هذه الآفاق وصور إقواده الذكي ملكوب السماء في صورة غير الصورة، يحلفها ولا تزال يحلف عنها كلما تقدمت به الأيام.

متى ولد المسيح؟

يعلم من رقم التقويم الميلادي أن السيد المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد، وعلى هذا الحساب يجري العمل بين الأمم الأوربية منذ سنة ٥٢٢ للميلاد، وهي السنة التي دعا فيها الراهب ديبوسيس الصغير (Exegus) إسي تاريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد، وصح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن.

ولم يكن الرجل صغيراً في مكانه لذيبيته، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبل النواصب والاكسائر، وقد حقق بحثه ومراجعاته ما استطاع في زمانه فلم يمسلم من الحضا في حساب بضع سنوات، ثم تعدل إصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه بإضافة أربع سنوات إلى التقويم القديم لدى يحسبه أصحابه منذ بدء الحقيقة، واعتبروا أن السيد المسيح ولد في سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم.

أما القول الراجع في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات وأنه على أصح لتقدير أن لم يولد في السنة الأولى للميلاد.

ففي إنجيل متى أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

وقد جاء في إنجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين، وقد حكم طيبريوس النوبة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦ من تأسيس مدينة روما، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

وبذكر إنجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكساب - أي لإحصاء - في كل المسكونة، وأن هذا الاكساب الأول جرى إذ كان كيرنيوس والياً على سورية «مذهب الجميع ليكتبوا كل في مدينته، وصعد يوسف من مدينة الناصرة إلى

اليهودية، ليكتتب مع مريم امرأته المحطوبة وهي حسلي، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر.

والمقصود بالاكنتاب هنا على ما هو ظاهر أمر الإحصاء الذي أشار إليه المؤرخ يوسفوس وأرخه بما يقابل الستين السادسة والسابعة للميلاد ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيربيوس معروف وهو السنة السادسة، فيكون السيد المسيح إذن قد ولد في نحو السنة السابعة للميلاد، وتكون دعوته قد بدأت وهو في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مآثورات الإسرائيليين، فإن الكاهن اللاوي عندهم كان يباشر عمه بعد ثلثين، وكان الأحبار اجتهدون عندهم ينفقون الخمسين من الخوص لتفسير والإفتاء في مسائل لفقه الكبري، وبهذا قالوا عن السيد المسيح أنه لم يطلع لخمسين بعد ويدعى أنه يرى إبراهيم ويسمعه إليه، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأخرى أن يعجدوا بكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين.

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الإحصاء أشار إليه هو الإحصاء الذي ذكره ترتليان Tertulhan وقال إنه جرى في عهد ساتورنيوس Saturnus وإلى سورية إلى السنة السابعة قبل الميلاد، فإذا كان هذا هو الإحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة في السنة الأولى للميلاد.

ومن القرائن التي لا نريد أن نهملها قرية الكوك الذي قيل إن كهان المحوس تنسوه من المشرق ليهدوا به إلى المكان الذي ولد فيه السيد المسيح.

فمن المعروف أن خبراء فييقية وفارس كانوا يشتعرون بالفتك و لتنجيم، وأهم كبرا في عصر ميلاد يرقبون حاداً جلاً في التاريخ لشري حوالى سنة الميلاد وكانو كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحوادث الجلل المترقب من حين إلى حين، وكان قران المشتري ورحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتناول، وفي داخل البلاد لفارسية حيث ترصد الكوكب للعبادة وإسبحاء الإرادة الإلهية، وبكفي أن نذكر بقيا هذه العادة في النبقعة الفيتيقية إلى ما بعد أيام المعري لنعلم شأن الأرصاد هناك كما كانت في الزمن القديم، وقد

كان المعري الضمير يعنى نفسه بهذه الأرصاد ويقول عن قران المشتري
ورحل حاصة في لزومياته .

قران المشتري زحلاً يرجى	ليقظ النواظر من كراها
وهيهات البرية في ضلال	وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رن الفراقيد والثريا	قبائل ثم أضعت في ثراها
تخفى الناس جيلاً بعد جيل	وخلفت النجوم كما تراها

قارداً كان هذا ما حذف من العناية بالأرصاد في البقرة الفبيعية إلى أيام
المعري فليس من الأمانة للبحث أن يهمل قرآن الأرصاد كل الإهمال، لأننا
نرفض التجسيم ونرفض دعوى المجوس فيه.

فمن المفعول أن ننكر على النجمين عنهم بالعيب من رصد الكوكب وطولع
الأفلاك، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفي ظهور الكوكب الذي رصده، وأن يبطل
دلالاته مع سائر الدلالات، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات.

وقد ذكر فريدريك فراير في كتابه «حياة المسيح» أن العلكي الكبير كيلر حقق
وقوع الفرج بين المشتري ورحل حوالي سنة ٧٤٧ رومانية، ويقول فراير في
وصف هذه الظاهرة «إن قران المشتري ورحل يقع في الثلث نفسه مرة كل
عشرين سنة، ولكنه يتحول إلى مثلث آخر بعد مائتي سنة. ولا يعود إلى الثلث
الأول بعد مرور فتر البروج كله إلا بعد انقضاء سبعين وأربع وتسعين سنة
وأربعة أشهر وأثنى عشر يوماً، وقد تراجع كبير بالحساب فنتبين له أن لقران
على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية في الثلث لنوبي أو الحويين وأن المريخ
لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية.

ويظهر من هذا الحساب أن تاريخ الميلاد مضاهي التاريخ الذي يستخلص من
التقديرات الأخرى على وجه التعريب، وأن السيد المسيح ولد في نحو السنة
الخامسة أو السادسة قبل الميلاد

وبعود فبقول إن إثبات الرصد لا يستلزم الإيمان باطلاع المجوس على العيب
من مراقبة الأفلاك، وكل ما يفهم، ولا يحوز أن يهمل، أن الدين كتبوا تاريخ
السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الطاهرة ويؤمنون

(١) الجزء الأول صفحة ٢١ الطبعة الثانية من مطبعة كاس.

بذلها على ما حدث عظيم فعربوا بينها وبين ميلاد المسيح المظهور، ولعل الأناجيل قد بويت والناس يتحدثون بقرآن فلكي من قليل ذلك لقرآن في حكم القبط هادريان فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به إرياسي عقبه ليحضر دعوى المسيحيين وسماه بن الكركب «بار كوكبه بالعبرية» ونفس على العملة التي سكتها صورة كوكب فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيل إلى تلك لطاهرة البكية أمدرة، بعد الدعوة المسيحية نحو سبعين سنة.

على أن الدراسات الأخيرة في علم المقابله بين الأدب تسوق لمؤرخ الذي يكتب عن تاريخ المسيح حتمًا إلى مبحث عويص أدق جدًا من البحث الذي يدور حول السنة الميلادية فإن القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ اسوتر، فشك الكتاب في وجود الأنبياء والمرسلين، وكان الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام شكوا هي يودا كما شكوا هي إبراهيم وموسى وعيسى، وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين، فشكوا هي شخصيه هوميروس وهي شخصيه شكسبير وظن بعض اثنتين لشخصيات المتأخرة في التاريخ انها وجدت فعلاً ولكنها لم تضع ما نسبوه إليها ولم تكتب ما ينشر بأسمائها

وقد زار فولتير - إمام الساكنين - بلاد الإنجيز هوجد هناك مدرسه بولنصرونك تتحدث بعناية السهوية في شبهاتها عن وجود السيد المسيح، وكان باطون يسأل العالم الأديبي ويلاند هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخي وجد كما وصفوه ؟.. وجاء القرن اساسع عشر وقد طغت على مدار الدراسات الدسبة موجات من الكتب التي ألقيها لأدن والديمركسون واهريسون والإنجليز يفتون بها - وأن المؤرخين ويرجون أن السيد المسيح شخصيه من شخصيات الخيال، ونس من المبطل ع في هذا الحير أن نورد أقوالهم مقصدة أن مجمله في هذا الموضوع. فإن أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التي طرقتها وخلاصة اسراهير التي شفعا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتب، ولكت محذري بتلخيص الأساسي أهم من الدين قامت عليهما مدرسة الشك في وجود السيد المسيح، وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر في النواريع القديمة التي فصلت أخبار عصره، والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت رويتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الثمن القديم وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض.

أما المؤرخون الذين حصوهم بالذكر قههم يوسفوس Josephus وناسيوس Tacitus وسوتنيوس Suetonius وكلهم ممن أرحوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه.

نعم وردت في نسخ من تاريخ يوسفوس إشارة مقتضبة إلى «عيسى القديس» ولكن انقضاء التاريخين يجزمون بأنها مضافة إليه، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث في ذلك العصر، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية امانة عند من يعلمها وليست امانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودي الذي يكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول: «إنه في ذلك العهد عاش عيسى ذلك الإنسان القديس - إن حار أن يسمى إنساناً - بعدما نرى من المعجزات البات وعلم الناس ونفى الحق فاستبشر به، وأبعده كثير من اليهود والإغريق، وكان هو المسيح».

قلوا إن يوسفوس اليهودي الذي مات على دين لا يكتب هذا ولا يؤمن بإيمان المسيحيين، ولو أنه أمر كما أمروا له اكفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم في ثلاثة أسطر جاءت عرضاً بغير تعقيب أو تفصيل

ومن اللاهوتيين الذين عقنوا على هذه الملاحظة لقس هورن Home الذي ألف كتابه «مقدمه الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة» وأدرك به هجمة الشكوك الأولى في سنة ١٨٣٦^{١١}

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التي حفظها مكتبة امثيكان من الترجمة العبرية وأن العبارة نفسها موجودة في النسخة العربية التي تحفظها الطائفة المارونية بلسان، وأن كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والإغريق والمصريين قد أطلعوا عليها واستشهدوا بها وأن يوسفوس قد أُنشِر في موضع آخر إلى جيمس بانسقف أورشليم حيث قال «إن حيانا عهد المسهرين اليهودي وأحضر أمامه جيمس أحد عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرحموا عقاباً لهم على عصيان الشريعة».

قال هورن ولو أن أوسيباس Eusebius أو من استشهد به بعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلفاً لها لما عدم تدهداً يكشف تسميته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب به مكتبة موقرة بين الرومان من قديم الزمان، ويفسر هذه المكتبة كتعبير يوسفوس شرف الوطنية، الرومانية، بل كان من الراجح جداً أن يتصدي اليهود لن يدس تلك العبارة في تاريخهم الأشهر فيفصحوه بنفساً له وتفيداً للديانة التي يدعيها.

والع هورن إلى الشكوك التي تحيط بتلك العبارة لأنها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسيباس، فقال إن هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استماعهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب النوراة.

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس إلى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودي مؤمناً بالمسيحية أو برسالة المسيح المنظر، ولعله سماه « المسيح » رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحاً ويعرفونه بشهرته العاليه.

أم المؤرخ الروماني تاسيتس الذي كتب تاريخه حوالي سنة (١١٥ ميلادية) فاقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع إلى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية، ولم يذكره مباشرة بل أشار إلى اسمه في سياق الكلام على حريق روما، حيث قال إن الإمبراطور نرون أطلقه اتهام الدس بياه بإحراق المدينة فألقى لتهمة على صنفه العامة الذين يسمون بالمسيحيين ويُسبون إلى المسيح الذي حكم عليه بونتياس بيلاطس ماتوث في عهد القيصر طيبريوس »

ولا يعرف الآن علام يستند تاسيتس في رواية هذه النسبة، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح.

وكذلك لم يذكر سوسينيوس خبراً مباشراً عن السيد المسيح، ولكنه قل في تاريخه للقيصر كلوديس « أنه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام بشرور المذابح بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Christian لأن الاسم القيس عليه بين كريسيس بمعنى الضيق وكريسيس بمعنى المسيح

وأياً كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته إلا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد، وأنه كان يحسب أن الرعيم كريسيس كان يحرص أتباعه بنفسه في ذلك التاريخ.

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومورخون من اليهود مثل
الفيلسوف فيلون الذي سبق ذكره و لقرح جسيس الطبرى الذي عاش في
الجيل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه عن عهد موسى إلى نهاية القرن
الأول للميلاد ولم ترد في تاريخه إشارة مباشرة أو عبر مباشرة إلى الدعوة
المسيحية

تلك خلاصة الحجة التي تقوم على خلو التواريخ من ذكر الدعوة المسيحية في
عصرها.

أما الحجة الأخرى وهي حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد
المسيح والقصص المروية عن الأرباب في الصادات شرقية لقدمية فهي
تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر في ديانات
الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس واليهود والكنعانيين، وأكثر المقادير
المتشابهة بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأدباء المطلعين على أدب
المشرق في لغاتها، ويغلب عليهم مرجح القول بأن أخبار المسيح بقية من
بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد «اثني عشر» الذي يشير إلى الروح
ويشير إلى عدد الالامبيذ، ويدل عليها الاحتفال بالملاد في يوم الاعتدال
الخيرفي على حساب الأقدمين، والاحتفال بيوم «الأحد» الذي اعتقدوا قديماً أنه
يوم الشمس ويعرف حتى اليوم في لغات الأوربية بهذه السمة، وذلك عدا
اعتباة في سم لام ولولادة في انود وركوب «الضمار» في «أتر» وغير
ذلك من الشعائر والمعجزات.

والغريب في شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيراً مقبولاً
لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد، فإن
التفسيرات التي فرضوها تبسيع لشكوك كثيرة كلها أعرب من القول بشخصية
المسيح التاريخية، ولا يكفي أن يقال إن أخبار المعجزات والشعائر قديمة
لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه، وقد نوهي
بولس لرسول في نحو سنة سبعة وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين
سنة يبشر باسم المسيح، ولم يكن قد طار العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث
خلال ذلك ما يفسر تكويتها من المعجزات والشعائر التي طلت قبل ذلك مئات
السنين متواترة على الناس وكان قواؤها قديماً أقوى وأشيع من قواؤها بعد
تقادم العهد وبسبع السنين

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطره ولم يميروها من الحركات المتفرقة التي كانت تختلج بها صوائف اليهود على صفة عامة، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص في الأناجيل حميف غير ثلاث مرات، فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين في الإصحاح الحادي عشر من أعمال بولس لرسول حيث قيل إن استلامنا دعوا «مسيحيين» لأول مرة في مدينة (أنطاكية) ثم جاء في الإصحاح السادس والعشرين على سبيل التأكيد تفريده أنه قال محتجاً «أهرون بما تقنعني به أن أصبح مسيحياً» وجاء في الإصحاح الرابع من رسالة بطرس «إن غيرتم باسم المسيح قطوبى لكم.. إن أحدكم لا يتكلم لأنه قسبل أو سارق أو فاعل شر، و صاحب فضول، فإن تكلم لأنه مسيحي فلا يحجل».

وحمله ما يؤخذ من الكلمة في هذه المواضع الثلاثة أنها كانت نسبة لرداء وتعبير على السبه أعداء المسيحيين، وليس من الصعب أن يصعب الكلام عن طائفة لا عنوان لها من يكتب عن جماهير ذلك الزمن في عمار انتواريح، وبخاصة إذا كانت لم تبلغ من الخصر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغرو شأنها لأنها طائفة معصوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة، فالحكل بيكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطين، وهي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخضر^١

ويبدو لنا أن بشوة العلم الجديد - علم المقالة بين الأديان - هي التي دعوت أصحابها في القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقاربات فريق طائفتها فإننا نرى أمامنا في هذا العصر أن هذه المشابهات لا تنفي ولا تثبت، بل لعلها إلى إثبات أقرب منها إلى النفي على الإجمال.

نحن نرى في هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يعتسبون فيسب كل منهم إلى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد أن ولياً واحداً هو الجدير بإيادها وهو لولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء.

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تخصف إليه نواذر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علماً لتلك الصفة في كل ما يروى عنها ويسب إليه، فالمشهور بالكرم تنسب إليه المكارم جميعاً بغير

سند، واشتهور بأشجاعة بذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك البادرة أو صاحب نادرة مثلها إن لم يكن بقوقها وتزيد عليها في بابها.

وينبغي أن نذكر أن المسحبة وجدت قبل أن تقتن بها تلك المراسم و لتقاليد، وأن المسيحيين الأوان عرضوا عن كثير منها واستكروه ومنعوه، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد المسيح في يوم كائن ما كان وعلى رأسهم أوريجين العقي العظيم. وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كيسة من الكنائس المعتمدة بعد الميلاد في تاريخ من النواريح، ثم احتفلت الكنائس فحتفت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، ويرجح أنها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور الحافل الوثنية التي كانت تتخذ عيداً للشمس وتعلن فيه الأفراح بانتصار، لتور على الظلام، لأن الاعتدال الحريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار.

ولا ينبغي أن بولس الرسول قد ولد في طرسوس وهي مركز من مراكز الديانة أشرية، فلبس من المستعرب أن تعلق بذهبه بعض مصطلحاتها وعباداتها، وأن يكون قد تقل بعصها شيسراً لإقناع أتباعها بالدعوة الحديدية، فلم يول من سياسة الششير في جميع الدعوات أن يسير في هذا الباب ما يستطع تيسيره، وقد ظلت هذه أسياسه مرعية عدة قرون، إذ نقل الرهب Bado في تاريخ الكنيسة الإنجليزية خطبا لفريغوري الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار بالبابوي ملبتس Melatus الذي كان ينهى عن هم المعاند الوثنية ويرى الإبقاء عليها «وتحويلها من عبادة الشيبين إلى عبادة الإله الحق، كي يهجر لشعب خطايا قلبه ويسهل عليه عشرين المعاهد التي تعود ارتيادها»^(١).

ولا خلاف في تكرار العيد «أثنى عشر» في كثير من الديانات، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به حرافه أو أسطورة غير تاريخية وقد كان خيفاً باتصحاب المقاربات والمقابلات أن يذكروا هذه الحففة بصيغة خاصة، إذ أقرب المؤرخين إليهم سوتتيوس صاحب تاريخ «القاصرة الاثنى عشر» وكلهم من «الشخصيات التاريخية».

(١) كتاب من الوثبة إلى المسحة في الدولة الرومانية (العمل الثاني)

Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde

وفى تاريخ الإسلام تفصيل مذهب الشيعة الإمامية وهم يدينون بالولاء لاثني عشر إماماً معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه إنه «شخصية غير تاريخية».

على أن البقاد الذين شكوا فى وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك فى وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا فى السيد المسيح أنه رمز من رموز لعبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها، ولم يصر إلى علم هؤلاء البقاد أن اسم يوشع بن نون وجد مدفوساً على حجر عند «بوميدى» مشمال إفريقيا حيث أقام العبيقيون مستعمرتهم (قارة حداثه) التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجة. وعلى ذلك الحجر الذى كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابه بالعبيقية يقول كاتبوها «إتنا خرجنا من ديرنا لننجو أنفسنا من قاطع لطريق يوشع بن نون»^(١). وليس كاتبو هذا الكلام عن لى لإسرائيليين ممن يتهمون بالحرص على إثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه.

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيراً فى اصطبات المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهداً قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لإثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية، فمتى حدث فى تاريخ الأديان أن أثبتت معشرة من الشعائر والمراسم تلتق بنفسها وتخرج فى صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلتقت وكيف انفصلت كل منها عن عديدها الأولى؟ ومن هو صاحب الرغبة أو صاحب المصلحة فى هذه الدعوة؟ وأى شاهد على وجوده فى تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد؟ وكيف برز هذا العامل التاريخى الدينى الحظير على حين فجأة قبل أن ينقضى جيل واحد؟ ولماذا كان يخفى مصادر لشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها إلا مسوية للسيد المسيح؟

إن استخدام المقارنات والمقابلات فى تحقيق هذه المسابقة أولى بمؤرخى الأديان من كل ما جمعه أو هرغوه لينتهوا به إلى فرض مقطع الطير

* * *

على أن صناعه النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز الدلغ إذا لم نستمع أن تعتمد على الكلام المروى فى تقرير «شخصية الفيل» وتحقيق مكانه من التاريخ، ودين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبتنا فى هذه الناحية عن كثير

(١) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شميرز

فمهما يكن من عصر لقول في استفلال كل إنجيل أو أعتد بعصها على بعض هذه علامات واصحة لا يمكن أن يقصدها كتب الأناجيل، لأنها علامات يفهمها الآن وفقاً لـ نرسنه من نظير الدعوة المسححة ولم يكن لها محل في روعس الرواة اشاهدين أو السقلين.

فإن روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهائسها، ومن التطور المعقول أن تبدئ الدعوة فومية عصرية ثم تنتهى إيساسة عاحية، وأن تبدئ في تحفظ ومحافظه ثم تنتهى إلى الشدة والمخالفة، وأن تبدئ بقليل من الثقة في شخصية الداعي ثم يسهى باشعة النى لا حد لها في نفوس الأتباع والأشيب ع، وهكذا كانت الدعوة المسححية كما روها الأناجيل لوز أن يعتمد كذبها نطوب أحوال التطور أو تلتفت أهائهم إلى معنى تلك الاحوال.

وربما كان أوضح من هذا في الإبانه عن شخصية الداعي أن أقواله نضم نقداً لجميع المذاهب التى كانت شائعة في عصره، وأن هذه لأقول تشبیر إلى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود في غير تلك الشخصية.

فالأقوال لمسيحية تنقد الفريسيين ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين.

وتنقد اصحاب النصوص ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الإباحين والمتطس.

وتنقد الاسين المتعصبين ولكنها لا تدين براء الفلاسفة أو الأبيقريين والرواقين، وتنقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرة بدناً ولا ترفض عبره من لنحل كل الرقص من حاسب محدود.

وتستشهد بأقول موسى وأبرهيم والأنبياء ولكنها لا تنقيد بكل قول منها تنقيد لمحاكة ولا يندى بها اقتداء التابع للمبوع.

وإن جمعنا وجهه النقد جمعه وحدة امكن أن مردها كلها إلى وجهة نظر متاسقة وقوام شخصى مرسوم، وقد يقع فيها الاستثناء جبره ينبغى أن يقع، لأن التساق الذى يجرى مجرى الأعمال الآلية وترة واحدة لا يوفق طبيعة الدعوات الحية المعقدة ولا سيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثيت.

هذه علامات «موضوعية» لها شأنها الأكبر في إلبانه عن شخصية السيد المسيح، وأصدق لبن العلامات، بعد هذا كله أن الدعوة جاءت في إبانها وفقاً لمطالب زمانها، بحيث تكون الغريبة أن يحنو الزمن من رسول يقول بالدعوة ويصلح لامنتها، لأن يوجد الرسول ويستعرب أن يكون، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولاً يوافق رسالت المشوبة لوفقه به الحياتي دون ذلك التوفيق المطبوع

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع ورغم روايتها أنها كتبت بقلم بيلرس لنيولس صديق بيلاطس حاكم الحليل من قبل الدوة الرومانية، رجعها إلى مجلس أنشيوخ الروماني في عصر الميلاء، وجاء فيها «إبه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بإس الله، وكان للرجل سميت نبيل وقوام بين الاعتدل، يفيض وجهه بالحنان والهيئة معاً، فيحبه من براه ويخشاه. شعره كلون الحمر مشرّح غير مصقول، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماخ، وحنينه صلبت باعم، ويدس في وجهه شمية، غير أنه مشرب ببضرة مبردة. وسيماه كلها صدق ورحمه، وليس في قمه ولا أنفه ما سباب وعناه ررقاوان بلمحدر، محيف بلام أو أنب، وديع محجب إذا دعنا وعلم لم يره أحد بصمحك، وراه الكترون يسكي، وهو طويّر له يدن جمالتن مستقيمتن، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى لإطباب، وملاحنه في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال»

إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفي أسديف لتاريخيه ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى، كقول بعضهم إبه كان قمباً أهدب بميم الصورة فإن الشريعة الموسوية كابت بشرط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيه نقص أو تشويه، فمن عبر المعقول أن يتصدي للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة أو تشويه، وإن يحلو الكلام المنسوب إلى خصومه أو أنصاره من الإشارة إلى ذلك في معرض المذمة أو معرض العجب ومدّراه العيوب الجسمانية بالمحاسن الروحية

نعم إن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم لنبوة بشروط معلومة كشروط الكهنة، ولكن اتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع الحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يرثهم ويسافرن إليه ليشفيهم من الشوهة والآفة.

وليس في الأتجيل إشارة إلى سمات السيد المسيح بصريح أو تلميحاً يفهم من بين السدائر ولكن مؤخذ من كلام تشدليل حين رآه لأول مرة «ه رائع المصير ملكي الشارة. إاد مال له «أنت ابن الله. أنت ملك إسرائيل». وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يحبب بها الهتي على تحيته. ولكنها على أية حال تحية لا تقل للاحدب ولا للدميم المشنوء.

غير أننا نفهم من أثر كلامه أنه كان مأثوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة إلى مستمعيه. وذلك الذي قيل عنه غير مرة إنهم أخذتهم كلماته، لأنه «يتكلم بسطان» وليس كما يتكلم الكتبة والكهان.

وقد كان ولا ريب مصيح اللسان سريع الضطر، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند إليها في حديث الساعة كلما موجي باعتراض أو مكابرة. وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتحلة، لأن وصاياه مصنوعة في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل إرسالاً على غير تسق، ويغلب عليه إيقاع الفواصل ويريد اللوازم ورعاية الجرس في المقابلة بين الشطور.

ونرى الصمال باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره، والتفاتته الدائم إلى لأزماء ولكروم وأجداث التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله، عنوان لما طمع عليه من تروق الحما و لإعجاب بمحاسن الصبغة، وكثيراً ما كان يرناد المروج والحدائق بسلامة وينحد من السفينة على البحيرة - بحيرة طبرية - مبهر بحطاب منه استمعيين على شاطئها المشوشب كأنما يوقع كلامه على هرات لسفينة وصهقات الموج وخفقات السسيم، ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الحلاء الطلق حيث يقضى سويغات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مشجاة العولم الأبدية على قمم الجبال ونحت أنفة الرقة.

وقد اطلعت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر في نفوس النساء، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه في محبة ووقار، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كأنهن مأسورات مسحورات، ومنها من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعبون فتدتهن بحوالج اللحم والدم وبرعات العرائر والأهواء. ولكن ارحس العظم الذي مجذب إليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة وينسبط عليها الطمئينة ويععمها بحدن الصهر ولفداسة ويريحها من وسوس المسعف والفنة، أعظم في نفوسهن أثراً من كل عظيم. وهو الذي من أجله يسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون.

لهذا لا سنغرب أن يقال إن قرينة بيلامس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الإنسان الصالح وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة. ومبهن العوامى اللوامى نستدعنهن الحياة كل يوم بداع مطاع

وقد وصف نفسه بأنه «وديع مواصلع الفؤاد» وقال إن الوداعة مفتاح لسماء ولا يدخلها غير الودعاء، وتمثلت الوداعة في كثير من أهواله وأفعاله، ومنها الرحمة بالخطائين والعائرين، وهى الرحمة التى تبلغ العبد حين تنقذ من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات

إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف العصب حيث تضعيع لوداعة ورحمة، وكانت شيمته فى رسالته شيمة الرسل جميعاً حين تغلق عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم، وتتقدم حقوق الهدية على حقوق الآباء والأمهات «من هى أمى ومن هم، حوتى؟» من يصنع مشيئة أى فى السموات هو أخى وأختى وأمى». «من ليس معى فهو على ومن لا جمع معى فهو يفرق». «وإن كان أحد يأتى إلى ولا يبعص آياه وأمه وامراته وأولاده وإخوته، حتى نفسه، فما هو بقادر أن يكون لى تلميذاً».

وهذه وأشامها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريديه، هى الشروط التى لا غنى عنها لكل دعوة مستسيلة أمام السيطرة والجبروت، ومبها يكن فيها من أساليب المحار والكتابة فالقول الصراح لدى لا خلاف عليه أن التردد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التى يتأذى بها، لتحتود فى كل محنة جنود الحرب فى ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة هما بالناس بجنود الحرب فى فتوح الروح ومطالب الكمال.

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المضطر فى سبيل الحق ولهداية ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الإقدام على الموت وجرياً لا مثوبة فيه، فالخطر على الروح إذا كان موت الروح فى الحساب، فإن لم يكن خطر على الحسد ولا على الروح فلا خير فى المحاصرة.. وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات.

وفى إنجيل مرقس أن السيد المسيح نجا بنفسه إلى جانب البحر حين علم أن القريسيين والهيروذيين يسمرون به لإهلاكه وفى سائر الأناجيل أنه كان يشكو حزنه وبشه حين أحرق به الخطر، وأنه كان يدعو الله أن يحنه الكأس التى هو

وشيك أن ينجرعها، وأنه كمن يقول بتلامذه «نفسى حد خريه.. امكثوا هاهنا واسهرُوا..» وأنه كان يعيب عليهم حين يراهم نياماً على مقربة منه وهو يعانى برحاه وأشجابه ويقول لهم ما قُدرتم أن تسهرُوا معنى ساعة واحدة؟ ثم قال لهم أحر الأمر وقد حم لفضاء الآن نامُوا واستريحُوا !

فليس الإقدام على الجهاد أن تتحرد النفس من طبيعتها هي وحيه اسحاوهِ واسلف، وليس محصوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطه أو تلود بمن تحب وتستمد بعون من عواطف المحبين وإيم المحظور عليها أن تحشى الخطر على الجسد حيث يجب الحشية على الروح وهي غير ذلك لا حشية ولا مضطرة ولا ملام.

ومن تحصل إحاضل أن يقال إن السيد المسيح خلق على فطرة أمثله من أصحاب الرسائل الكبرى الذين لا يقطعون لحظة عن الرخصة الروحية، وهذه الرخصة الروحية هي التي يجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق، والتفتيق في أعماق ضمائرهم لعلمهم يعرفون مداهم من لاقتراب أو الابتعاد عن طريقهم إلى الله فهم مشرعون على النور حبوا وبحقنوا عنه حباً ويعودون إلى طوابقهم في كل حين بحاسدونيها على إشرافه أو أحسبها، ويستشعرون تارة لأنهم يامحون معالم الطريق، وينجون على أنفسهم بالامعة تارة لأنهم يتهمونها بالرجع عن الجادة والانحراف عن المسواء، وفيما بين هذا القلق والانسابة تنمو النفس على الرخصة وتتهيأ للشباب والاستقرار وتتخذ العدة للمقربين والإيمان.

لا ريب أن هذه الرخصة هي التي عاها كتاب الاناجيل بفترة لتحرمة هي البرية حيث تعيش اشياطين وما للشياطين هنا من وسوس غير وسوس القبح وصراع الفسة وغواية الطمع بين الإقدام والإحجام، حيث تضمنت نفس ساعة ثم بعض هذه الصماتية بالنجرة ساعة أخرى، ثم تعاف التجربة لأنها تسمم بالشل حيث ينبغي التسليم بالله لأن رسالة الله حقيقة بكل فدأ وأهل لكل ثم وكل جراء، ولكن من لك أمها الضمير، إنك أنت المخار لرسالة الله أو تطلب الفرها؟ فمن أين لك أن تجمع بين طلب الفرها وبين صدق الإيمان.

وفد نعلب المسيح على هذه المحنة كما نعلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وحهاد وصبر أليم، ونحسبه بعد ذلك كان بعالج لقلق من هذا القبيل بالسليم للواقع، وكان بسطهم الحوادث إرادة العيب حيث يحتجب عنه هذه لإرادة فيترك الحوادث تمضي ويمضي معها وينظر ما تعكم به لمساير وهي هذه

المواقف يحيفه أن يحجم وينهم صميره بالإحجام مخافة العواقب فذلك مسعاه إلى بيت المقدس في أخريات رسالته مرتين. مرة وهو يدخلها بين المرحيب والتهليل، ومرة وهو يدخلها بين النمر والشبك وخيانة الأصحاب وبسيسة الأصدقاء.

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذي ينطوي فيه حب الاستلهاج والاستطلاع ضيقاً من طلب البرهان وخيراً من الكوص ما لم يكن هناك برهان، وما قل فأنل هي أمثال تلك المواقف ليعمل الله ما يشاء، لا وهو يتركه للمقادير أن تظهر من محرى الحوادث حيث تحرى بها مشيئة الله.

في لحظات كهذه اللحظات يعرض الإنسان كله في أعماق صميره، ولعل لحظه من تلك اللحظات هي التي قال فيها الناظرون إليه به عائب عن نفسه، أو هي التي صمت فيها لا يحير جواباً لأنه هو يترقب جواب لغيب المصور مما عسى أن يكون عاب قريب، أو هي التي أقدم فيها لا ببالي بسلامته وعاقبة أمره، ولم يكن فكره قاصراً عن استطلاع العواقب جميعاً في موقف من تلك المواقف المحسمة، ولكن المشكلة الكبرى كلها هي سبطلاع المواقف فهل تراه لا يقدم على العواقب إلا بصمان من البرهان ؟

إن أعمال أصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها ما لم نفهم معها هذه القاعدة الأساسية في طبيعة الرسال. وهي أن الشك أخوف ما يخافونه. وأن استسقاء الإيمان عذبة ما يمنعونه، وكثيراً ما يقدمون على حسم الأمور لأن السلام أقرب إلى الإيمان، ولأن الإحجام شك أو انقصر برهان، ولشك وانقطاع البرهان يستويان في بعض الأحيان.

وقد نوتت الروايات على أن السيد المسيح كان يسهل إلى الله في تحريبات رسالته قائلاً «ألهم جنيتي هذه لكأس، لكن كما تريد أنت لا كما أريد»

وفي هذا الاتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك، أو أقدم عليه في مثل هذا الموقف فبه لم يحبب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجتبه إياها كما أراد. وموضع التشبه في نفسه الشريفة أن لسلامة هي ما يريده، وأن الكول هو طريقه إلى احساب الكأس، فلنكن مسيرته إذن في غير هذه الطريق، ولكن التسليم هو طريق الإيمان.

الباب الرابع

الدعوة

دعوة المسيحية

توزيع الأديان جميعاً تثبت الحقيقة الواضحة التي لا معنى لكتابة النوارخ مع الشك فيها، ونعني بالحقيقة الواضحة: طراد السنن المكتوبة في الحوادث الإنسانية الكبرى، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التي نهدف لحدوثه، وجاء سريانه في العالم على وفق لوائمه ودواعيه

وليسست المسيحية شذوذاً عن هذه القاعدة، بل هي من أقوى الطواهر التي تؤيدف وتسرى في مسراها، وسراها، وسرى بعد الإحاطة بالفصول السابقة ولفصول التالية أن الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين، وأن العصر القديم كان يلتفت ببطره شيئاً فشيئاً إلى وجه العصر الحديث، وسرى غير مرة في هذا الكتاب أن الدعوة لمسيحية جاءت في إبانها وفاقاً لمطالب زمانها.

وليس أقرب إلى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله في كلمات معدودات يحصر بها أهاته النادرة ونهتدي بهذه الأمانات إلى علاجها الموكل إلى العقيدة.

فما هي امة العصر التي برزت في انبساط وانفتحت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟

كتب له اثنان بارزتان إحداهما تحجر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع، والأخرى سوء العلامة بين الأمم والطوائف مع اضطرابها إلى المعيشة المشتركة هي بقعة واحدة من العالم لعموم وعي لخصوص تلك الأقاليم التي سمعها اليوم بالشرو الأدي.

تحجرت الأشكال والأوضاع وعلبت المظاهر على كل شيء، وتهافت الناس على حياة لغشور دون حياة اللباب، فكل معنى الحياة عندهم سميت ورساة وأبهة ومحافس وشركات، وانتقلت الحصاراة من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد، كما يحدث دائماً في أعقاب الحضارات تبدأ في عالم الفكر والوجدان ثم تستعصم العمارة فنتميل إلى التحسّم والتضخم ونفقد من قوة النفس والصميم بمقدار ما تكسب من مظهر المادة والمال.

تجمعت الثروة و لكسل فى باحية وتجمعب المصقة والجهد المرهق فى ساحة
اخرى فغرق لسانه فى اسرف ونحرق العبيد والأرقاء فى الشقاء، ومسدت
حياة هؤلاء وهؤلاء

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم حبرا من المعنى والمعاني،
وتصحرت معه اشترائع والفوائين فلم يكن غريباً أن ينقش على حجارة وأن
يرتفع مبرانيها فى يدي عدالة معصومة العينين، وأن تفرع الكهان هسويين
لأنهما فارغان !

وتحجرت لعقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وبحجرت العبد الكندية بين
بني إسرئيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين بفيم الحرب الحامسة على قدم
وساق، وأصبحت التقوى علماً بالنصوص وبحثاً عن مراسم التسريعه، وعلب
المظهر وإن اختلفوا على اللفظ والناويل.

أشكال وقشور، لا جوهر هناك ولا لب.

وساعت لعلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والضافة، ولعب الخس بسوئها
عابيه، لأن الدس يعاون من سوئها يعيشون فى نطاق واحد ويخصعون لحكم
وحد، فلا هناك منه بحال.

دنيا فيها مظهر النرف ومظهر العفيدة، ومن وراء ذلك باطن هو ، وضمير
حوا ، فلا جرم تكون خلاصتها فى عقيدة لا يؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة
الضمير ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظهر، ولا تضيق بخلاف كما
تضيق بخلاف على النصوص والحروف وفوارق اشعره بين هذ النناويل وبذلك
التحليل.

عقيدة قوامها أن الإنسان حسر إذا ملك العالم بأسره وبعد نفسه، وأن
ملوك السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش، وأن المرء بما يضمه
وفكره قبله وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد
والمحاريب.

هل كانت الدنيا آفة غير الله المظهر والتناحر على المظاهر ؟

وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟

وهل كانت المسيحية إلا العقيدة التى تدعو إلى خلاصها من حيث يرجى
وهبات لها فى غيره خلاص ؟

وتقصت لأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الاتحاد، واسم المصير كله
بالعصبية في السائد والمسيود والحاكم والمحكوم.

الروماني سيد العالم بحقه، والإسرائيلي سيد العالم بحق إلهه، واليودي
والأسيوي ولصري كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثاى الهمجية، والمولى يخرج
العبد من زمرة الأدميين، والعبد يمقت اسيد مقت الموت أو بفصل موت على
أبرق الذى يجمع عليه بين لذل والألم والجوع، وأبناء الأمة الواحدة طوائف
تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء

ويأتى إلى هؤلاء الشير لىطور قماًدا يقول لهم إن لم يقل لهم إن الله رب
بنى لإنسان وإنه هو ابن لإنسان. وإن الحب أفضل العضائل وأفضل الحب
حب لأعداء. وإن الكرم أن تعطى فوق ما تسأل وأن تعطى بغير سؤال، وإن
مكوب السحاب لا تفتح الأموال، وإن ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وإن
المجد الذى يمدح طلائه لا يستحق أن يطلب، وإن المجد لى يستحق أن
يطلب لا موضع فيه لزاع.

ولم يأت هذا الشير فضولاً على عبر انتظار أبناء قومه موعودون به فى ذلك
الزمن، ونساء لأقوام ينظرون شحناً لا يعرفونه ولكنهم يعرفون أن زمانهم لا
يطاق، وأن حانهم لا بد لها من تحويل.

أفلس العبادات، وجاء أحد المعبودين - قيصرو رومة - فأحرق الأسفار
والنبوءات، ولم يبق منها إلا ما هو أقرب إلى الفن فى محراب أبولون إله
الفنون

أم العسادة التى لم تفس فقد كان رأس مالها كله سيئة مبصرة.. وهذه
علامات أسداد يستشتر بها لمصيق ولا يمجدها انكر، وإما هو خلاف على
العلامات، وعلى مصداقها من العيان والسماع.

لقد كاس الدعوة طناق الزمن وقد بدأت فى أوانها لم سقدم ولم تتأخر، وكفى
بذلك برهاناً على موقعها الصحيح من التاريخ، فقد كان بلاء الدس أنهم خربوا
بنظهم وعمروا صاغرهم، فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء، مشارة لا
تعالى أن يخرط ظاهر الالب كله إذا سلم للإنسان بمن لصمير

وهذه هى دعوه السدد لمسح كما ساقها العيب وبرقها العالم الذى سقت
إليه، ولو لم تكن هى طلائه يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضى عليها أربعة
قرون

وقد لقيت الدعوة أشد ما يلقاه دين من مقومة فلا يفهم من هذا أنها شاعت في العالم الإنساني على الرغم منه أو على غير حاجة منه إليها، وإنما الدين المطلوب هو الدين الذي يدعو أسباب قبوله على أسباب رفضه. وليس هو الذي يقبله الناس جميعاً طائعين مستسلمين كنه عفى عمن يدعو إليه وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الأمر عن لدعاة.

ولقد تصدى رسول الإخاء والسلام لدعوته وهو يعلم أنها أخطر الدعوات وأنها أخطر جداً من دعوة البغضاء والقسوة، لأن الذي يدعو إلى الإخاء يدعو إلى اقتلاع جذور المعصاة، والذي يدعو إلى السلام يدعو إلى تحطيم سلاح الأقوياء، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهين وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة حالم وليس اسبيل إلى ذلك سبيل الرضا والوفاء.

لهذا كان يقول: «حب لألقى على الأرض نارا فحذا لو تصطرم». وكان يسأل تلاميذه وسامعيه «أتحسبونني أتب لأمنح لأرض سلاماً؟» ثم يابرو ويقول: «كلا» وإنما هو الصدام والانقسام خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين، وثنان على ثلاثة، ينقسم الأب على ابنه، وابن على أمه، وينقسم الأم على بنتها والبنت على أمها، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة.

ولقد كان كلام كهذا يبار على السمة بني إسرائيل كما قال ميخ: «ما هي الناس من مستقيم كلهم يكمن للدماء وينصب أشبك. لا تاتمبوا صاحباً. لا تنفقو بصديق وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك، إن الابن يأتيه مسبهين، وإن البنت على أمها ثائرة.. والكنة على الحماة، وللإنسان من أهل بيته أعداء»

ولكن هذه الأقوال وما شكلها كانت وصفاً لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر في سبيل الخير، ومن البغضاء في سبيل الإخاء، ومن الحرب سعياً إلى السلام.

وقد صحت نبوءة الرسول في بني قومه فباصموه أعداء لأنه يبسط الدعوة إلى الإخاء ويعم بها «طيور السماء» وهم رمز للطراق في جميع الأرجاء.

ومن الواضح أنه كان يؤثر قومه بالحرب لو استمعوا إليه وأسمعوه، ولكنهم مدعوون إلى وليمة يرفصونها فمن حضرها يغير دعوة فهو أولي بها، وكذلك صرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعي عنده في طلب ضيوفه فقال هذا إني شترت حفلاً وعلى أن أخرج هائطره. وقال ذاك إني اشتريت

أزواجاً من النقر وسامسى لأجربها.. فغضب السيد وقال لعهده أذهب عجل
إلى طرقات المدينة ورفضها وهت إلى من يراه من المساكين. فعاد العبد وقال
لسيده قد فعلت كما أمرت ولا يزال هي لرحمة مكان قال السيد فادع غيرهم
من أعطاف الطريق وزواياها حتى يدخلني بيتي قلن يسوق عشبني أحد من أولئك
الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء».

ويمكن أن يقال هي وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب
لمطرفة التي ينظر بها لقارئ إلى كلام المسيح في الأناجيل.
يمكن أن يقال إنها دعوة إلى حين ينتهي وشيكا بانتها. لعالم كله في امد
قريب، ويمكن أن يقال إنها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف به انتهاء.
ولكننا على التحقيق نطابق حوهرها كله إذ وصفها بأنها « تعبير وجهة »
وافتاح قصة، ولا سبيل إلى الجمع بين الوجهتين ولا إلى التردد بين القستين، فمن
يخدم أحد سيدين.

قصة الروح أو قلة الحسد.

قصة الله أو قلة « مامون »^(١) إله المادة والمال

معبد الصمير أو معبد الصخر والخشب

هنا أو هناك..

فالهم هو الاتجاه أين يكون، وإلى أي امد يدوم، وكل ما يلي ذلك من تفصيل
فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتردد متى استقبل لسلك
قبلته وأدر ظهره له وراءه ولاند من المفسر الحاسم بين القبتين، ولاند من
حيره بين السيدين

(١) كلمة ارامية برمر إلى نظام المنيويا واشتهر بالصمير وتظهر الآن في لغات لأردنية على إنه
المادة والمال

اختيار القبة

كان الموقف كم قدماً - على مفترق الطريق، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته، ويحسب لها كل حسابها، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها، ويجمع قلبه كله في خدمة الرب الذي يعده، فليس في مفسوره أن يعبد ربهين وأن يدين بالخدمة والإخلاص لسيدين

وعلى هذا لوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على حليتها، وبزول البس عنها بل يروى عنها ما يبدو عليها من النقائص والأضداد لأنها عند تصحيح الاتجاه تعادل على طريق مستقيم

إذا كان الجيل مقبلاً على محراب « مامون » بقلبه وقلبه، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب.

إن عباد « مامون » غارقون في هموم الطعام، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام، فالذي يستدير هذه لقبة فيمكن قلبه حيث لا ظل لذلك المحراب ولا أنقص لأركابه وأوثانه، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان.

أو كما قال لهم الرسول الشير « أحياء أفضل من الطعام، والחסد أفضل من اللباس وزنايق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تعزل، وسليمان في كل محله لا يلبس كم تكبس وحدة منها فإذا كن العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويصح عداً في التور يلبسه الله فما أحرأكم أن ييسكم يا قلبى الإيمان. »

« نعم. وإذا نهالك أمة العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى... اطلبوا كنوز لا تنفذ في سمواتها حيث لا تدلها يد اسارق ولا يسبها السوس. »

من استدير قلبه « مامون » فهذه هي القلة التي تنجى إليها، وهذه هي عابها القصوى، وإن لم تكن هي كل خطوة في الطريق.

وعلى هذا اوجه يفهم السمع رسول الرحمة حيث يقول « ما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً من لا يقدر على أن يبعض أباه وأمه وامراته وبنيه وأخوته، بل ينقص نفسه.. »

وما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً من لا يقدر على أن يحسن صلته ويتبعني في طريقى »

قائل هذا هو القائل

« أيها السامعون أحبوا أعداءكم، أحسبوا إلى مبغضكم باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يبغضون إياكم، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر، ومن أخذ رداً منك فامنحه ثوبت، وكل من سألَكَ فاعطه ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم، وأي فضل لكم إن أحسنتم لدين يعبوبكم ؟ إن الخطاة ليحبسون من يحبهم.. وأي فضل لكم إن أقرضكم من يرضون قرضكم ؟ إن الخطاة ليقترضون من يقترضهم.. بل يحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أحركم... ».

وقائل هذا هو القائل :

« إن أخصاً أخوك هو يوحنا. وإن ناب فاعبر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات وناب إليك سبع مرات فتقبل منه توبته ».

وهذا يقض داك

هذه الرحمة التي تعم لأعداء والأحباب تقبض ابغضاء التي تشمل بها أحب الناس إلى الناس : لأبَاء ولأمهات والأبناء وبنى الرحم والقربى،

إنهما تساقضان عداية لساقص لا على وجه واحد، وهو توجهه لنظر إلى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة، وعناية قصوى غير تلك العناية القصوى التي تسديرها

وإذا افترقت الطريقان ووجه عليل أن تمضي هنا أو هناك، فلا جناح غلبت أن تمضي حيث سمعت خطاك ولو كرهت بنفسك وحملت صليبك واقطعت عن نوبك، وما من أحد نأسي أن يحب نوبه وأن يحبه نوبه إذا ساروا حيث ساروا وسبقوا معه حيث استقام، فليس عن هذا يجري الحديث ولا في هذا موضع للنصيحة والتفصيل، وإنما يجري الحديث ويستمع الصبح حيث يشعلض الطريقان ويتناقضان

وإنما يجري الحديث ويستمع الصبح حيث سقابل الفيلسان، وحيث تمضي هذا مع الله وتمضي هناك مع مأمور.

ولا ينفذ في هذا اعترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات، فكلها على نهج واحد من أول الطريق إلى غايته، ولهذه العناية القصوى ينبغي أن يتمول من يعمها يخطاه وأثرها بهواه.

وعلى مثل من الأمثلة التي نعلم بها أقوال المسيح عبر بهم عن الموقف كله بأن يحسبوا لبقية كلها قبر بباء حجر في البرج اشمامح.

« من منكم وهو يريد أن يبني برحاً لا يجس ليحسب نفقته ويعلم من
ليه ما يلزم لكماله؟ ».

فهذا حساب النكسب جميعاً قبل وضع الحجر الأول في أساس البناء، ولا
حجر ولا أساس ولا برج هناك، وخير لمن تخذله القدرة ونعوره النفقة أن
يترك الأرض والحجر والساء.

فمن نظر إلى الأرض مرأى شعباً تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من
ذلك الشعب ولنظر إلى لائق الذي ينص إليه الركاب، فهناك القلة التي يتلاقى
عندها ما بشعب، وينهى إليها ما اعوج أو يستقيم من الدروب.

ولقد كان المستمعون إلى السيد المسيح، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه
لأميرين ترحيمه بالأطفال لصغار وحطابه للمبؤذين المحقرين، فاسهرهم حين
رأهم يعبثون عنه أفعال القرى وقال لهم

« سموا الأطفال يأتون إلي ولا تمعوههم.. فمن لم يقس على ملكوت الله طفلاً
فلن يدخل إليه ».

وقد لقوم أيقوا أنهم أبرار واحنفقوا لمشهورين بالذنوب: « صعد اثنين إلى
الهيكل يصليان، فريسي وعشار.. ».

سأما الفريسي فراح يقول في صلاته حمداً لك يا إلهي: « لست كسائر
هؤلاء الخطافين الصالحين امرأة، ولا كمثل ذلك العشار، أصوم في اليوم مرتين
وأزدي حق العشر عن كل ما أقتنيه.

وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء وقرع صدره
واسهل إلى الله ارحمني يا إلهي أنا الخطي. فهبطا إلى بيتهما هذا مستجاب
وبذلك غير مبرور ».

وتكرر هذه الأمثلة فنكرر معها العجب من المستمعين إليه من آمن به وأحبه
ومن كفر به وحقق عليه، ولو أنهم إذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته
وسنقبوا قبلته لما أنكروا عينه أن يشخص ببصره إلى بعيد، وأن يزهّد في
يومه ثم يمشد بالرجاء إلى غده، فبما في بعد يوم أولئك لأفعال المرتقب، وإنما
يرجى لتبديل الحال من لا يعيبه من الحاضر إلا أن يزول.

وجماع أهول أن الدعوة الجديدة، كبت ككل دعوة جديدة عربية مناقضة لما
حوالها، ولكنها تنقص عنها كل عرائبها وتناقضها إذا نظرت إلى القلة التي
تستقبلها فهناك تلقى اشعاب ويحسن المآب.

تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها في فترة قصيرة ثم نطل أكثر من ثلاث سنوات، ولكنها كانت كافية. لأنها كانت في الواقع تحريش ودعوى، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة، وهما يوحنا المعمدان (يحيى العيسى) وعيسى ابن مريم.

كان يوحنا المعمدان مثل الناسك الصارم الذي لا يحابي ولا يتردد، ينذر كثيراً ويشتد قللاً، ويضع القاس على أصل الشجرة، ولا يبالي أن يلقى بها حطباً في الأنون.

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس، كلاهما من سلالة الكهنة أبناء هرون وهما زكريا والنصيبات.

وفي نجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد في شموخه لأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدائمة في بوبه فأصابته الفرعة بدخول الهيكل وإطلاو الحور، فصار مكنه في احزاب وجمهور لصلي يترقب ويتعجب، حتى عاد إليهم صامتاً لا يتكلم، فعلموا أنه قد حلت به لرؤيا داخل احزاب، ثم روى أنه بصر عيسى يمين المذبح ملك واقف فاضطرب وعرفته رجفة فقال له الملك لا تخف يا زكريا. إن الله قد أجاب سؤالك وسنتك «مرأيتك ولداً وسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون، لأنه يولد من بطن أمه ممثلاً بالروح القدس ويرد بني إسرئيل إلى إلههم، ويتقدم بروح إيليا (إيلياس) وقوته ».

وقد ذكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم

﴿ هَذَا نَذَارٌ كَرِيمٌ
قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٣٠﴾ فَانَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ فِي الْإِحْبَابِ إِنَّ اللَّهَ يَبْخِرُ لِرَبِّهِمْ مَصْرُفًا
يَكَلِمَةً مِّنْ أَمْرِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ

يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا أَنْ تَكَلِّمَ النَّاسَ
وَجَعَلَ ابْنُ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ آيَةً لَهُ وَرَبُّهَا إِلَى رَبُّوهُ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ ﴿٤٠﴾

وذكرت في سورة مريم

﴿ كَيْصَ ١ ٠ ذَكَرَ مَرْحُومَ رَبِّكَ عِنْدَ رَكْعَتَيْ ١ ٠ إِذْ نَادَى رَبَّهُ بِدَعَا ١ ٠
خَفِيًّا ١ ٠ قَالَ رَبِّ ابْنِ لِي مِنْ الْعِظَمَاءِ وَيُؤْمِنُوا بِمَا قُلْتُ وَقَدْ خَشِيَ
بَدْعَ آبَائِكَ رَبِّ شَفِيعًا ١ ٠ وَإِنْ خِفْتُ لِلْآلِ مِنْ وَرْدِهِ وَكَانَ امْرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلَدًا ١ ٠ يَرْزُقْنِي رَبِّي مِنْ غَيْرِهِ وَإِلِىَ عُقُوبٍ وَلِحَعْلَةٍ
رَبِّ رِضْيَا ١ ٠ يَذْكُرِيَا إِنَّا نَسْتَعِينُكَ بِقُلُوبِنَا أَسْمِعْهُ يُحْيِي لَكَ تَجْعَلْ لَكَ
مِنْ قَبْلِ عَمَّا ١ ٠ قَالَ رَبِّ أَنْ يَكُونَ لِي عِلْمٌ وَكَانَ امْرَأَتِي
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ١ ٠ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى
مَهَيَّنٍّ وَقَدْ خَفَضْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ١ ٠ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا أَنْ تَكَلِّمَ النَّاسَ تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١ ٠ فَخَرَجَ عَلَى
قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَمِعُوا بَكْرَةً وَعَشِيًّا ١ ٠ يَبْجَحُ
خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتُهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ١ ٠ وَحَسَّ مَا أَمَرَ لَدُنَا
وَرَكُوعًا وَكَانَ نَهْيًا ١ ٠ وَرَأَى يُولَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ حَبَارًا عَصِيًّا ١ ٠
وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا ١ ٠ ﴾

وقد بدأ بعمل منثوراً للتمولة. وذلك معنى وصفه في القرآن الكريم بالحضور،
وكان عالماً بالكتب السبعة، يسمعها من أنبيه ويتلوها في خلوته، وكان كثير
أعربه شديداً على نفسه في بهجته وبسكه، فلما ظهر بالسجدة رآه الناس في
ثوب حشيش من لوبر بلغ حقويه بمطعمه من الحديد، يصوم أكثر الأيام ويفتت

من الجراد والعسل البرى ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم توبوا واستمعوا قد وضعت العنس فى رأس الشجرة وكل شجرة لا تأسى بثمر حصد تقصع وتلقى فى النار . صوت صارخ فى البرية كما قال الأنبياء الأقدمون .

ولم يكن ينفى حركاً فى كلامه عن نبي خطبنة أو دنس، فراح يحكى بهذا الصوت القوى الصراح على الملك هيرود لأنه سرح من هيروديه أخته و زوجها لا يراى بعبد الحبه . فلما اعتقله الملك وجيء به إلى حضرتة لم يسكت ولم يكف عن استنديد به وبأخته وأمره بتطبيقها فرر من غضب الله .

وهى سهره من سهرات اللهو التى تعود هيرود أن يحييها فى قصره رفعت بنت حنثه (سلامة)^(١) بين يديه فستخفه الطرب و وعد أن يعطيها سؤالاها كائنا ما كان فلم تسأله شيئاً غير رأس يوحنا فى طبق، وأصرت على طلبها فأعصاها ما سألت وهو كاره، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء، فثقلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراف.

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول لثأر قتل أن يتكر لهم، كما يفعل لاديين «المحترفون» عادة بالوعاظ الذين لا يتسبون لهم ولا يعيشون فى زمرةهم فكان يوحنا يصيح بهم «ما أولاد الأعدى . لا بهحسن مأخلاقكم أنكم تنسبون إلى إبراهيم.. إلى أقول لكم إن الله قادر أن يحرر من هذه الحجارة أبناء إبراهيم».

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس أن الخلاص نعمة يسعها الله على من يشاء ولا يحصى بها بناء سلاله دون سائر اسلالات البشرية، وكانت علامته على قبول لمسيحين لدعوتة أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم، مهم بعد ذلك، هل للسخرى فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وإبراهيم.

هذه لدعوه لصارمة لم تلبث أن اضطدمت بعمية الشهوات وعباد العزور، ولكنها لم تذهب سدى بن الدهماء التى لا تضلها أهواء السيادة، وبقي اسم يوحنا مقدساً محبوباً بخاف الأعدىاء أن يجفروا عليه، فلما أراد الكنيسة والدموسيون أن يخرجوا السيد المسيح بالأسطة والمعصيت رد عليهم حرجهم وقل لهم أحيوبى (أولاً) هل كانت رسالة يوحنا من اسماء ام من الناس ؟

(١) المشهورة باسمه سالومي .

فهم يستطيعوا جواباً لأنهم إذا اعترفوا برسالتهم أنهموا أنفسهم وإذا أنكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا صممتين.

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه، وهو شديد الحذر من إغضاب نوى الرأي والسلطان، فقد قال عنه « إنه كان إنساناً صالحاً أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله » وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه، وهى شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم، وقد باع دعوة الرسول الصارم بإحدى التجاربين اللذين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة إذا انحصرت فى قبيل واحد، وأن الخلاص مرهون بمن يصلبه ويخشى من قواته، ولو لم يكن من ذلك القبيل.

* * *

والسيد المسيح طسعة أخرى غير طسعة يحيى بن زكريا، فلم يكن مبادئاً ولا نافعاً من الناس. بل كان يمشى مع الصالحين والباطنين، وكان يشهد الزلازل والأعراس ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت مبهمة نفقة وكلفة، ويوخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وبزمنوا فستكثروا أن تربق إحدى انصاء على رأسه ضرورة طيب تشتري بالديابور، وقالوا لماذا هذا السرقة ؟ لقد كان أخرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء، فقال لهم عليه السلام « ما بالكم ترمجون المرأة ؟ إنها أحسست بى عملاً وإن الفقراء معكم اليوم وغداً، ولست معكم فى كل حين ».

هذه السماح قد اصطدمت بعمامة الشهوات وعاد الغرور كما اصطدمت بهما تنب الصرامة. وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال « إن يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به من شيطان، ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا إنه إنسان أكل وشرب محب للعشاريين والخطاة ».

وسأله قد استوتت تجربتها بل تجربتها، وخرجت من التحريتين معاً إنسانية عالية تنادى من يستمع إليها، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتها دعوة الغيرة الصارمة الأبى، ودعوة لعيرة لسمحة الرضية، ووقدر بها أن تعيش فى قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه، فلم يسمع بها العالمون.

أشريعة

كل مرجعه تاريخية لذلك العصر تنهى من جانب البحث السياسى وجانب
البحث الاقتصادى أو جانب البحث الاجتماعى، أو الدينى، أو الثقافى إلى نتيجة
وحدة وهى أن صحابا لنذخ والرياء قد طغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر
حداً بقوى حتمى عصر واحد، فلا يطبق أن يسفر به إلى انصر الذى بعده دون
أن يطرأ عليه طارئ، وإن يكون ذلك الصدى غير ماري' انقلاب شامل.

سعى فب صحابا لنذخ والرياء غلبة ما سلطوه فى عصر واحد وقد يقال إنهم
صحابا ثرياء بألوانه الاجتماعيه والنفسيه، فما كان النذخ إلا صرياً من ثرياء
الاجتماعى، لأنه معلق فى جميع أحواله بفحفة الظهور، وسيار ولع النفوس
بفحفة لظهور الأخوف وولمها بالرياء.

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة.

لكنها لا تلزم لتأتى العالم بمرید من الشريعة، ولا بمرید من تطبيق الشريعة،
فقد تكون لحصيه كلها هى تطبيق الشريعة إذا جرت على سنة الرياء، وغلب فيه
اتفاق على الصنق والإنصاف.

إنما تلزم الرسالة فى أمثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتج إليه، وتنفذ
ضممايه

والآداب، الإنسانية هى الحاجه العظمى حين يحضر السوس باطن العرف
ولشريعة، وضمماي الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الإنسانية ويشعر بتلك
الحاجة العظمى.

إنها رساله قلب كبير يشعر فيجب إليه كل شعور، ولا سيم شعور الضحايا
ولمطومين.

ويوشك مع الظلم أن يكون كل متهم مظلوماً، لأن الجريمة كلها فى جانب
الحاكم لا فى جانب المحكوم عليه

وحيث يكون الظلم هو الآفة فاللهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف
ولإفاد

وقد كان لهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والإفان في أحضان الدعوة الجديدة: أحضان الرسول المشر بالخلاص والنجاة.

طوبى للحناني طوبى للمساكين طوبى للجياع وانطماء، طوبى للمضطربين في سبيل البر، طوبى للودعاء والرحماء، « تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمتقلين.. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني.. فتجدوا راحة نفوسكم. لأن نيري هين وحملتي خفيف ».

أما لويل فهو ويل الشباعي الذين لا يعلمون أنهم جاثعون، ولأغنياء الذين لا يعلمون أنهم معوزون، والمضطربين الذين لا يعلمون أنهم مساكين، والتكبريين الذين لا يعلمون أنهم منكسرون.

* * *

واستجاب ضحايا الرياء لمسيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم إلى العزاء، وعسى قدر ما يحملونه من أوقار اشريعة العمياء، والتقوى المريفة، وربما كان الأصح أن الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم إليه وشعورهم براحمته ورحمته، وعلم أن لشكران على قدر الغفران، وأن لأم في الدوبة على قدر الكرم في الحب، « مديان على أحدهما حسمائة دينار وعلى الآخر خمسون. ليس لهما ما يوفيان، فأجزلهما شكراً من سوبح في الدين الكبير ».

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة، لأنها لم ترل ضحية الضحايا في كل عصر يطعم عليه البذخ من جانب ويطفئ عليه الحرمان من جانب، ويغم الرباء في كلا الحاسين، ولم ترل في كل عصر كذلك العصر تنوء بشقاء الفتنة على ألوها قصة لعوانة وفننة الفاقة وفننة الأسيرة المنحلة وفننة الحيرة التي تعصف بالثقة... والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان.

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة نحفاً بعد أحقاب، وأطبقت عليها فننة في ذلك العصر خاصة أكاماً فوق أكام - فاد جنان ظهور يغمر ضمعها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قراره وحدابها ويشيع الأمل في رحمة الله بين حوانحها، فعلمها درس من دروس الحب القدسي ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين القسطين وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرفة زلت شرائع الهيكل، وزالت شرائع رومة، وهي باقية عالمة، صورة لغفران ماثلة في شخص الرسول

الكريم، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بفدائر رأسها.

والتفت السيد إلى تلميذه وإلى المتفجعين من حوله، يتسألون: كيف يزعم أنه نبي ويجهل أنها امرأة خاطئة، فقال: «أتظن إلى هذه المرأة! إنني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء، ولكنها غسلتهما بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها، ولم تمنحني قسلة وهي مند دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي، ولم تدهن رأسي بربيت، وهي قد دهنت رجلي بالطيب. ومن أحب كثيراً غفر له الكثير من خطيئته...».

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو بصع على الشريعة الكاذبة هراسها، ونخشي النقوى الرائقة على فحرف وكربنها، وويل لمن يفتح باباً للتوبة والرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت لنفمة والعقاب.

* * *

مند الخطوة الأولى اتى خطها السيد المسيح في التبشير برسائله أخذ على نفسه أن يعتزل «السلطة» ويتنهي لها عن ميدانها، فلا يتصدى لها بإبطال أو بإنقاذ، لا يبذلها ولا يدعى لنفسه ولايتها، وحق لكل معلم قاصر أن يسلك تلك السلطة في زمنه، فإنه كما تقدم قد نشأ في دينا تشكو الكفة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمنسحكين ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيكل وشعائره ومجللانه ومحرماته، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأه سيطرة هيروا وأبنائه وأدبائه وقائعه ولا حاجة إلى مزيد من الأحكام مع فساد الحكم، فإذا وجب إصلاح بعضها فالخير من إصلاحه لا يسارى جهد الحرب التي تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل وعلى الدولة الأنومية اليهودية التي تشايح البولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين، ومن المحقق أن الشر الذي يجمع من ذلك الجهد أخطر وأقبح من الخير الذي يتأتى من ورائه، إن تاتى، وقد يدرك بإصلاح الصمائر ومهدب الآداب الإنسانية وتعليم الأحاد أمثلة من الأخلاق يهدى أصحابها حيث تصلهم الشرائع والقوانين.

إلا أنه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه، وسرعان ما أقبل عليه الجموع حتى أجمعت السلطة - سلطة لادين قبل كل شيء - بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والحمود.

حاج هو ميد به بعد أن ترك لهم مبدأهم، ووقع الاشتباك الذي لابد منه بين سلطه شعارها المتأله في الاتهام والبحث عن المحالقات والعقوبات، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاصين وتمهيد سبل الرجاء في العفراء

كان التبعشير بالعفراء والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم، وهي على كونها مصححة مريضة باب لفخر والكبرياء.

فجاء يسوقونه إلى حيث أبي أن يساق وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنه يبطل شريعة أو يتصدى لتعفيذ ذريعة، فأعنتوا عقولهم في البحث عن المشكلات والأغراض التي يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية، أو يقى فيها بما يخالف أدب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح.

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له أيها المعلم ! مر أخى يقسمنى الميراث... وطن أنه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه، فما زاد على أن قال أنها الإنسان، من أقامى عليكم قاضياً أو حسيباً ؟

وتعمدوا وهو فى الهيكل أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة فاقحم عليه الكنية والفريسيون يرويه ومعهم امرأة تدفعونها إلى وسط الحلقة، وراحوا يتصايحون أيها المعلم، هذه امرأة أخنت وهى تزنى، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونوه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ إن الشراك مكشوف على وجه الأرض، وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا ... إن قال ارجموه فذلك حق الولاية يدعيه، وإن قال أطلقوه فتلث شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل، فكيف الخلاص من جاسى الشراك، ولو أنه مكشوف معروف.

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهى من القضية إلى حل لا يدعى به السلطة ولا ينكرها، ولا يتساق فيه إلى مجاملة لرياء بالدين وكبرياء بالتقوى، ولبنوا بترقق ولا يبرور كيف يخرج من المأرق لذى دفعوه إليه، وهو يستمع إليهم ويحط بأصبعه على الأرض حتى فرعوا من جيبهم وسؤ لهم، فوقف قائماً ورد عليهم رياءهم فى وجوههم وكسر الشراك بقدميه من كلا طرفيه، وهو يقول لهم «من كان منكم بلا خطيئة سيقدم ويرمها بحجر».

لا يفرض شريعة موسى ولا يدعى تنفيذها ولا يجامل رباهم بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الخيرة والحل بالروغان !.

ويقيت المرأه المسكينه واقعة وحدها أمامه، فسألها سؤال العارف أين المشتكون منك ؟ أما دانتك أحد ؟ . فقالت لا أحد أيها السيد. فأرسلها وهو يقول ولا أنا أدنك. فاذهني ولا تخطئي.

نعم. لا بسببها ولا بحسب عيبه أنه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيها، لأن القاصي لا يدين بغير شكوى، وبغير شهود وبغير بينة !

وتناول مسألة الزواج والطلاق، وقد بلغ من سهولتهما في ذلك العصر أن تصدع الأسرة وأن تصحح الروحة أصعب من الحليلة في عرف قومها، فقال إن الزوج وأروجة جسد واحد لا يفصلهما إلا سائر وقد جمعهما الله « ومن طلق امرأته إلا لعله الزنا دفعها إلى الزنا، ومن تزوج مطلقة فإنه ران »

ولم تحدث مناقشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفهمين من متحدي العلم صاعه وأصوله إلا ارتبوا منها مفحمين، وخرج منها مجيباً أحسن جواب يل أكرم جواب.

فم يصعب عليه أن يحطم « لشرك السياسي » الذي يصبوه له ليسمعوا منه إشارة بإعطاء الجزية أو يعصيان الدولة، وأراهم أنهم يتعاملون بنقد قيصر ويكثرون منها الثروة والمال، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معاً، والأولون ينكرون السبت والآخرون يؤمنون به جسدياً وروحياً على السواء. فلما قيل له إن شريعة موسى توصي الأخ أن ينني بـروجة أخيه المتوفى حفظاً للأسرة، وسأله: لمن تزول في يوم القيامة زوجة تعافبها مسعة إحوة ؟ حين إليهم أنه لن يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال جواباً يرضى الصدوقيين أو يرضى لفريسيين فكان جوابه مقحماً لهؤلاء وهؤلاء، لأن الأحياء في العلم الآخر لا يترجون زواج هذا العالم، ولا يتناسلون !

والحق أن الأنجيل لا مروى لنا من هذه اسباحلات إلا ما تشهد أمثاله اليوم في كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعاملون المتفهمون لتعجير المعمين والوعاظ. وإن اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين في كل حققة على حسب الموضع والموضوع.

والحق ان قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكنة لهى دليل آخر إلى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » الناريحة، و لدعوه المتدسسه، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين، بل هم يروونها ولا يعطون إلى أهم لبواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية، فمن هذه الرسالة قائمة على أجساد التشريع واجتدب المعروض له بالإنطال أو الإيداز، ووجهنها على الدوام أنها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا وأبدن، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم ونسبت من ممالك النول والحكومات كذلك فإن لكهان الهبكل وكذلك قال لسيلاطس حاكم الرومان، وعلى ذلك جرى أسلوبه فى كل أمر وفي كل موعظة فهو أسلوب الآداب والمثاليات والبس بأسلوب النصوص والقوانين، وكلامه عن رضى المطلق وعن رضى العين التى تقلم إذا صارت مظرة اشتها، وعن حصينة اليد التى تقصع إذا وقعت فى العثرات، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس فى مسلك المسيح كله هى رسالته ما يجريه مجرى الإلزام، ومع هذا يجب على الرواة من يحسبه تشريعاً مقصوداً بحرومه، وفل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب التشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الإنسانية التى ترتفع إلى الأكمل فالأكمس وتنفذ إلى المعاشى من وراء الألفاظ، ويرجع الأمر فيها إلى صغير يحاسب صاحبه ولا يرجع إلى قضى يشمل عند أو يدخل فى الصدور ليتسمع فيها بواعث الاشبهاء، ولو خلصت هذه المعاشى إلى سامعيها جميعاً كما عبها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف لفهم والتأويل

شريعة الحب

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر، فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص، يخيل إليه أنها مقصودة لذاتها فتصبح شعلاً شاملاً له بمعنى في تنويعها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها، وينتهي الأمر به إلى اعتبارها مسألة براعة وفطنة واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تغفل من بين يديه، وإلا كان ذلك مطعناً في براعته وقطبته وهزيمة له أمام عزمته انقصودين بتلك الأحكام والعقوبات.

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص ولشرائع، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقوبات من خلال حروفها ومصورها أو من المقابلة بين سوايقها ولو احققها بين مواضع التوافقة والمناقضة منها، ويحدث هذا لكل «شريعة» صارت إلى أيدي الجامدين والحرعيين فقد أدركنا في مصر أننا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والبرود، اعتماداً على هذا النص أو تلك الحاشية، واقتناً منهم في عصر العبارات وببش الدفائش وقامة الدلائل من ثم على سعة العلم ولعلية في ميدان الحوار ومجال التف والبوران.

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء احاملين الحرفيين، وإنما الحساب كله للنص المكسب من جهة وللسوى العم والتخريج من جهة أخرى وإنما النفس البشرية هي الفريسة التي يتكفل العقاب باعبادها ويتكامل العلم بإغلاق مفاصل النجاة في وجهها، ويقذف في غرور العالم المحيطة بأسرار الشريعة وحفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بخير فرصة .
وتلك خيبة لشرائع ولقوانين، خيبة لها أن تفتح مداخلها ثم تنجح للصحايا والقرايين أن تغفل منها !

فالشارع اماهر في عرب الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبال واقتناص الضحايا.

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوقروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة

وقد سنفخ الأوداج بهذا الفخر علانية، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على إدامة الآخرين.

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة في اللعب بالأكماما وتعجيزاً للجهلاء، والحبل والقنوى، وحتى يرول الجواهر في سبيل العرض، ويرول للرب في سبيل العشور، ويرول الاستقامة وطهارة الصمير في سبيل الكلمات والنصوص، وتزول الحقائق في سبيل الظواهر والأشكال.

وإذا صار أمر الفضائل إلى الظواهر والأشكال تسبى فيها الصديق والرياء، فإن غاية الصديق والرياء معاً شكل ظاهر باطنه حواء، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق في فضيلته، ما دامت الفصية جموداً لا حس فيه ولا حباه ولا عصار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام وراء الأوامر والنواهي، وراء العقاب والاحتياال.

إن اجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر.

وعالم الظواهر غير عالم الصمير.

وهذان هما العالمان اللذان تقادلا وجهاً لوجه عند قيام لدعوة المسيحية

عالم كله قيود وأشكال.

وعالم طلق من القيود والأشكال، في ساحة الصمير.

روى إيجيل متى في الإصحاح الخامس أن السيد المسيح قال: « لا تطبوا أسي جنت لأنقص الباموس أو الأنبياء، ما حثت لأنقص بل جئت لأكمل ».

وربب الأناجيل أنه عمن في يوم السبت وسفر من المحرمات التي لا تدنس الإنسان، وخاطب الناس بغير خطاب الباموس.

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم في كل ما أبرموه ؟

إن شئت فقل إنه نقض كل شيء.

وإن شئت فقل إنه لم يقض منه مثقال ذرة

لأنه نقص شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب أو شريعة الصمير.

وشريعة الحب لا تبقى حرفاً من شريعة الأشكال والظواهر، ولكنها لا تنقض حرفاً واحداً من شريعة الباموس بل تزيد عليه.

ويبقى هنا أن نصصح معنى الباموس في الأذهان، فإن معناه هو « القوام » الذي يقوم به كل شيء، وباموس العقيدة هو الأصول الأندية التي يقوم بها

ضمير الإنسان ما دام للضعير وجود، قلن بزل قائمٌ كما قال السيد المسيح - ما قامت الأرض والسموات.

ولقد كمن المسيح شريعة الناموس حقاً لأنه جاء بشريعة الحب، وهي زيادة عليه.

إن الناموس عهد على الإنسان بقضاء الواجب أما الحب فيريد على الواجب، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء

الحب لا يحاسب بالضرور والشروط، والحب لا يعامل الناس بالصيكون و لشهود، ولكنه يفعل ما نطلب منه ويزيد عليه، وهو مستريح إلى العطاء غير متطلع إلى الجزاء.

بهذه الشريعة - شريعة الحب - نقص المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر.

وبهذه الشريعة شريعة الحب رفع لناموس صرخاً بطول السماء، وثبت له أساساً يستقر في الأعماق.

وبهذه لشريعة شريعة الحب قصي على شريعة الكبرياء ولرباء، وعلم الناس أن الوصايا الإلهية لم تجعل الرهو والدعوى واسيه بالنفس ووصم الآخرين بالنهم ولذوب، ولكنها جعلت لحساب نفسك فعل حساب غيرك، وللعطف على اناس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب.

وفي اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وحلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه لشريعة شريعة الحب والضمير

فكل كلمة قبلت في هذه الوصايا هي الكلمة التي ينبغي أن يقال، وكل مناسبة رويت هي المناسبة التي تقع في خاطر ولا تصل إليها شبهة الاختلاق

يلزم في شريعة انكرياء من يتحد الدين سبيلاً إلى التعالي على الآخرين، ويلزم في شريعة الحب من يقول لك المتعالي على غيره المتعالي بنفسه «لماذا تنظر إلى الفدى في عين أخيك ولا تنظر إلى الخشبة في عينك ؟».

يلزم في شريعة لفرح بالعقاب والسعي وراء العورات من يسوق المرأة لحصنة في المواقب ويحف إلى موقف الرحم كأنما يخف إلى محافل الأعراس،

ويلزم في شريعة الحب من يهوى ذلك لجمع النافع ويكشف له رياء ويرده إلى
الحياء، وقد أريد إلى الحياء حين استمع السيد يتأديه « من لم يخطئ منكم
فليرمها بحجر... ».

ويلزم في شريعة الرياء والكرياء أن يفخر المصلي بصلاته وأن يعلن الصائم
عن صيامه ويتحذه رياء ينم عليه بنحوه وصحته، ويلزم في شريعة الحب من
يهوى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصنوا قنمين في
المجامع وفي روايا لشوارع .. « ومتى صمتتم أنتم فلا تكونوا عيسى كإراثين،
فربهم يغفرون وجوههم لظهوروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر
لهم، وأم أسم فمنى صمتتم فادهموا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم، لا تظهر صيامكم
للناس بل لأبيكم المظلم في الصدور ».

يلزم في شريعة الرياء والكرياء أن يفخر المعطي بالعطاء وأن يستصيل به على
الفقراء، وأن يصوت قدامه لأنواع ويعين صدقته في الطرق والأسواق، ويلزم
في شريعة الحب أن يسر أعمال الحسنيين، فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين.

في شريعة الكرب تنقئ المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد
المصلح لأنه يجلس مع العشاريين والخطاه وفي شريعة الحب والصمير يقال
للمترومين يتقواهم ما ينبغي أن يقال لهم إنما يحتاج المرضى إلى الطبيب
وإما يكون الحب على قدر الغفران

وقد بلغت فتنة « الصواهر والأشكال » غايتها وطعت من الهيكل إلى البيت،
ومن المكتب إلى السوق، ومن البحر إلى المائدة حتى لقمة الطعام أصبحت لا
تحل أو تحرم إلا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراء والعزائم، وما تحاط به من
الشعائر والمراسم، وما يرسمه الكهان من أحكام النجاس والولائم، فيحقق
بصطدمها عالم الصواهر وعالم الصمير، ويحق يقال للمصطهرين يغسل
الأيدي والسلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة « إن ما يدخل الفم لا يدس
الصمير، وإن الدنس إنما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والعسوق
والكفران ».

* * *

ومحمل انقول أن الضر كله كان في حكم شريعة الصواهر والأشكال، شريعة
الكبرياء والرياء، مسألة « أمصار وسمي » بحذره أصحابه بقصص السلافة
واحصص ويرجع الأمر فيه إلى الموروثات والمأثورات.

فالفضل بين الأمم « امتياز رسمي » محتكر لإسرائيل لأنهم أبناء إبراهيم. والفضل بين الإسرائيليين « امتياز رسمي » محتكر لأبناء هارون وأبناء لاوي أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث، والفضل في الدين والعلم حرقه يحتكرها الكتبة والناموسييون أو فقهاء ذلك الزمان، بل كادب محبة لله لسببه المخار أن تكون « وثيقة هي صدك مرسوم » تضمن الإيثار لذلك الشعب وإن هبطت به أعماله دون سائر الشعوب... « فلا لأنكم أكثر الشعوب لأنكم الرب واحنا ركم فإياكم أقل من سائر الشعوب. بل هي محبة وحمله القسم الذي عاهد عليه آبائكم ».

قلما قامت لدعوة المسيحية بشريعة الحب والصميم كانت كلمتها هي الكلمة التي تقل في كل ما ادعوه وما استأثروا به واحتكروه

ليس الخير حكراً للنسب والسلالة « بل الذي يعمل بمشيئة الله هو أسمى وأحق وأسمى » « بن كثيرين يأتون من المشرق والمغرب ويتكلمون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب على أرائك المكوث، وأم بنو المكوث فيطرحون إلى الظلمة بالعراء ».

وإن الرحمة عمل. لا نسبة ولا حرفة.. وصرب لهم مثلاً « إنساناً خرج عليه الصلوص في طريق فلسطين وصربوه وتركوه بين الحياة والموت، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه، وجاء لاوي فمضى ولم يلتفت إليه. ولكن سامرياً راه فاشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق وأولاه عنايته ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين ليفقها عليه ويعني به ومهم ينفق عليه فهو موفيه عند مرجه «... قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل « أي هؤلاء، ثلاثة أقرب إلى ذلك لصريع الجريح » « ولصواب الذي لا خلاف عليه بدهة أن السامري المنبؤ أقرب إليه من أبناء هارون ومن اللاويين المصلطين ».

وداح يجيه فطاحل العلماء التياهيين بما علموه وحفظوا وتفننوا فيه من ألعاز الفقه وأحجى الشريعة فقال لهم « إن الدين بما تعمل لا بما تعلم... » خبر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم في عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم « لأنهم يحرمون الأوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عوانقهم ولا يمتدحونها إليها أصعب يرححونها، وإنهم يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم، يعرضون عصائبهم ويطيئون أهداب ثيابهم، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الأروام والمجالس

الأزلى فى الجامع، ويبتغون التحبات فى الأسواق وأن يقل لهم سيدى سيدى
حيث يذهبون...»

ثم يهتف بأولئك المباحين التياحين: «أيها القادة العمدان الذين يحاسبون على
العموضة ويبتلعون الجمل. إنكم تتقون ظاهر الكأس والصحفة وهما فى الباطن
مترعدان بالرحس والدعارة.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون - إنكم
كالقبور المبيضة، حارجها طلاء جميل وداخلها عظم نخرة.»

ولما تعاموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا، وسأله
أيهما أعظم فى الداموس؟ حسبوا أنه سيقب بين السطور وطيل البحث بين
الأسرار والألغاز، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله وكتب
جميعاً فى كلمات معدودات. «أن يحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك،
وأن يحب رقيبك كما تحب نفسك.»

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق، ولا تكون
العقوبة أنه يهدر الفرائض والأحكام وأنه يستريح فى لا يباح، بل لعله يتشدد
حيث يترخص النصوصيون والحرفيون، كما يشدد الإنسان حيث يحاسب
ضميره ويصنع فى سبيل الحب ما لا يصنع فى سبيل الواجب، وكل ما هناك
أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير، ولا يصبح قهقارها وحى
القانون وحساب الصكوك والشروط، وأساليب الرومان من بين السطور
والحروف.

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر
والأشكال، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الأفعال والوقائع، ولأنه
يحاسب صاحبه على همساته وسأوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء.

« قيل للقدماء: لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب. أما أنا فأقول لكم: إن من
بعض على أخيه باطلاً بائناً ويجزى... فإن قدمت قربانك وبكرت حقاً لأخيك
عيك، فدع قربانك أمام المذبح وأذهب قبل فصالح أخاك.»

« وقيل للقدماء: لا تزن أما أنا فأقول لكم: إن من ينظر إلى امرأة فيشتتها
فقد زنى بها فى قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات ماقلعها
وألقها عنك فخير لك أن يهلت عضو لك من أن تهلك كلك...»

« وقيل للقدماء: لا تمنح.. وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا.. وليكن كلامكم كله
نعم نعم. لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشيطان..»

« وسمعتكم أنه قيل، عين بعين ولس بلس. وأما أنا فأقول لكم، لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر.. ومن سخرت ميلاً واحداً فاذهب معه مبلين... »

« وسمعتكم أنه قيل، تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم، أحبوا أعداءكم، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيك. وادعوا لمن يسيء إليك وبطربكم لكي تكبروا أبدأ أتيكم الهدى في السماوات، فإنه يطلع شمس على الأشرار واصباح ويرسل عينه للأبرار ولطالبن. وفي آخر لكم إن أحببتكم من يحبوكم. أليس العشارون يفعلون ذلك؟ فتعلقو أنتم بالكمال، فإن الله كامل.. يحب الكمال »

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وبعصف بكل شكل ظاهر، ولكنها لا تهدم الباموس ولا تعصف بركن من أركانه، وقد يريد هراتسه ولا تنقص حرفاً منها حيث سقلها من الأورا. وبماطر العباب إلى الضمائر والقبوب، لأن الإنسان بحاسب نفسه إذا أحب حسناً لا تتركه لشرايع ولا يطلع عليه القصاء.

وقد كان المصطدم بين لشريعتين حيث يتوقع وكب يتوقع، وكان السجل بينهما هو السجل الذي تملبه شريعة الحب والصميم وشريعة الظواهر والأشكال، ولم تسقط من ذلك السحال كلمة كانت منطوية من دعاه لرياء والكبرياء. ولم يكن اجواب على كلمة منه عرضاً غير مقصود في جهته أو جراف بقوله كل قائل ويأتي لغير مأسسة، ومن ثم يقول إن الشخصية لفارخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا بدهن أصدق من هذا البرهان، وأن المصطدم بين اشريعين لا يختلف المحتلق إن شاء، لأنه من وراء طقة المحتلق أن يلحق بطبيعه اشريعين؛ شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء. ويدفع بهما حيث تندفعان ويملي عليهما ما تسألان عنه وما تحيان

تلك معاليم واضحة ومقاصد بية معروفة لمحي، فإذا وقع اللبس مرة فليس أسير من الحسم في مواضع اللبس على نوى انية الحسمه، فكل ما وفق شريعة الحب والصميم وحاف شريعة الظاهر والأشكال فهو هذا وكل ما مشى في سبيل الضواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك، ولن يطول اللبس في معنى من معاني السيد المسيح إلا على عباد الألفاظ والنصوص، وليس من الإنصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص في الدعوة التي تزريها وترجع كل شيء إلى مقاصد الحب والضمير. ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الحديد في الرق القديم فوضع الرقعة الفشبية على الثوب القديم.

آداب حياة

كان « أوريجين » فيلسوفاً ملحوظاً للمكة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية ويرى الكثيرون أنه أكبر المفكرين الدينيين الذين تبعوا بين القرنين الثامن والقرن الثالث للميلاد، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين فى عصره، غير مستثنى منهم أساتذته الأولون

هذا الرجل مرأ فى شعبه قول السيد المسيح أن أناساً يخصيهم الله وأناساً يخصيهم إبليس وأناساً يحصون أنفسهم فى سبيل الله، فحمله على معناه الحرفى وجب نفسه ليفهم بعد ذلك على تعليم النساء وهو ابن، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لأقوال السيد المسيح.

إلا أن ثروت هذه الرواية فى سيرة رجل من اعلام زمانه يبطل العجب من روایات كثيرة بقيت بين أحبار الدعوة المسيحية فى عصرها الأول، فقد كان الرجل بفقاً عينه إذا علم أنها نظرت إلى امرأة نظرة اشتهاه. وكان يمسح جسده مسخاً إذا رأودته الشهوات، حتى لبتساقط معه الدود وهو بقيد حياة، فإذا كان شاب فى دكاء « أوريجين » وهوة قطعتهم يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مصفاة فى العظة والبرابة.

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا، وسبقه وجاء بعده أناس من طائفته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين أوصى بكف الأعضاء عن برغبات الجسد، فلم يعن بعق أعين إلا ما نعينه يقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الإسكات، ولم يعن بقمع الجسد إلا ما نعينه يجمع الرياضة والبرية، وكن كلمت الإسكندري يقول بحق إن السيد المسيح لا يعنى بنبيد المال أن نرفضه بقاءً فى جميع الأحوال، إلا لم يكن الإحسان مصلية من أكبر الفضائل فى الوصايا المسيحية، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك معنى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه

إلا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائماً بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال حكماء المسيحية، ولا يزال هذا الخلاف قائماً إلى عصرنا هذا في الوصايا التي تنبؤ على رفض الحياة خاصة، وغير قليل من المتأولين يسمو منحنى الدكتور « شويتزر » Schweitzer الذي يرى أن السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا، لاعتيقاده أن الساعة قريبة، وأن الدين الذي يهجرها مقضى عليها بالفناء في مدى سنوات، فكل ما أوصى به الناس فالفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدخره المخزون للدنيا الزائلة.

وفي اعتقادي أنه لا محل لخلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجربين لنشر الدعوة، فإن كل دعوة هي عصر المسيح أو في عصرنا هذا، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا، تحتاج من الدعاة إلى مثل ذلك السجود ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى، وبظام فراق الفداء في لجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه، وأول أحكامه أن يفكر « الحندي المجاهد » في الموت قبل تفكيره في الحياة.

إنما الخلاف على الوصايا حين تنجيه إلى عبر التلاميذ والرسول إلى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولن يعملونهم من أبنائهم ونزولهم، فهل يطلب من هؤلاء جميعاً أن يتقصوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم وينتشدوها بالطير والنبات في اعتمادهم على العدا والكساء؟

أقول حقاً إنني أفهم وصايا السيد المسيح جميعاً ولا أجد في مهمها صعوبة على الإصلاح إذ أنكرنا النجوم على الحروف والنصوص كما كان يكرها عليه السلام، وإذا صعدنا أنه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها في هذا القول « ليس الإنسان للسبت وإنما السبت للإنسان ».

لقد كان هم السيد المسيح في الإصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير.

كان همه أن ينقل الآداب من محور إلى محور، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد إذا كان انتقال المحور هو المقصود.

كانت لغرض هي المحور الذي تنبؤ عليه حياة الأمم والأحاديث في عصره، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة.

كانت « الأشياء » مقدمة على النفس الإنسانية، فوجب أن تكون النفس الإنسانية مقدمة على الأشياء.

وجب أن يكون «مع النفس الإنسانية هو الغنيمة الكبرى، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم».

وإذا كان «الحطام» هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل، سيان من يطلب لدرهم لواحد ومن يطلب ملايين الدراهم، فكلاهما مدبره خطأ وسعيه عقيم. إذا كانت «الشهوة» هي محور الحياة فسيان من يشتتهى بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في طلب اللذة ولغوابة، فكلاهما هارع لهذا المحور الذي بنور علمه.

ولكننا ننقل المحور، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق، فننتقل كل شيء ويتغير الباب :أصيل من كل خلق.

إذا أصبح كسب النفس الإنسانية - كسب المحور - هو غاية الحياة فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئاً من الأشياء.

إذا تغير المحور فمساافة الفرسخ وليل كمساافة الشبر والقيراض.

وإذا بقي المحور فالبعيد كالقريب والفريد كالبعيد.

وتغيير المحور هو الذي عناء السيد المسيح.

وبتغيير المحور لازم في ذلك لعصر، لازم في هذا العصر، لازم في كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجاً لرسالات، ولم تكن آخر الرسالات هي لحياة الإنسانية.

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييراً آخر لو أنه حصر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال، ورأى الناس يفرقون في تعذيب الجسد ويهرجون ببطعته للنود وهم بقيد الحياة.

بس لا حاجة بنا إلى الفرض هذا أو الاحتمال الذي يقبل الخلاف، فإن المسيح قد غير المحور هذا التغيير في زمانه، غيره حين قبل إتيان الدنانير في عطر تمسح به قدماه، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لاتباعه في أفراح الحياة، وهي براءة كل هرج بآي من القنب ويسر الجسد ولا يحرق الروح.

وما كان الإصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات أنت تهتك نفسك لتكرر ميوثاً فحسبت أن تهتك نفسك لتكرر عشرة آلاف، ولا تريد.

أنت تنهالك على جميع الندى في جميع الأوقات، فتنهالك عليها أياماً في الأسبوع، وتنهالك على بعصها نون سائرهما في جميع الأيام
أنت مشغول الدهن بالعنوان والبعضاء فاشتغل بهم قليلاً ولا تجعلهما شغلاً شاعلاً بغير انقطاع.

كلا، لم يكر الإصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات، وإيم كان على إدراك مسألة « محور » ينتقل، أو مسألة « باعث » بتعبير، وعسى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها في مسافاتها ومقاديرها، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها إلى محورها الذي انحرقت عنه أو إلى محور جديد.

إبتنا لا نصف السيد المسيح بل نصف أنفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك ما يقول وهو يقول: « من أخذ منك رداً فاعطه قميصك مع الرد ».

أنرى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعصهما لعطى هما الرداء والقميص اللذين يأخذهما لأخذ أو يسلبهما السلب »

كلا، ما كان يفوته ذلك ولا ريب، ولا أنتى ريب

ولكن النفس الإنسانية هي المقصود، وليس المقصود هو الرداء أو القميص.

المقصود هو أن نرفع النفس الإنسانية فوق أشتاتها، بمثل من الأمثلة، يصح أن يكون هذا لمثل ويصح أن يكون مثلاً سواه

فليكن العطاء حباً وطواعية، لأن من يعطى مجبراً أو يعطى ما لا يهمه أن يعطيه يفقد شيئاً ولا يملك نفسه.

وليس كذلك من يعطى لأنه يريد العطاء إنه يكسب ما أعده ولا يضربه لأن عسى النفس يقس بما تعطيه، وغنى الجسد يقس بما يأخذه، ومن كان لا يبالي أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء.

أراد السيد المسيح أن يعبد الإنسان سيده واحداً، ولا يعبد سيدين، وهذا كل ما أراد.

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه.

ومن يعبد الله ويستعيد المال فلا جناح عليه

ومن حاول عبادة ذلك فهو غير مسيطر، وليس فصاراه أنه غير مشكور أو غير مأجور.

ونحسب أن انتهى عن عبادة سيدي قد أقام الحد واضحاً سهلاً بين ما هو
مباح وما هو محظور في طلب الدنيا ومبايعها وريبتها. فلا حرج على إنسان
يمتلك المال العريض وهو لا يعيد المال ولا يقدم نفسه هرباً على هيكلة ولا نحاه
لإنسان يملك درهمين ولا يتألهما بخير عبادة المال.

ويحسن بما على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد إقامة مجتمع في
مكان مجتمع. ولكنه قصد إلى تهذيب آداب إنسانيته يقتصر به ضمير الفرد
وضمير الأمة، وإقامتها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها

فالجسم أفضل من الطعام واللبس.

والإنسان أفضل من السبب

وغنيمة النفس أربع من غنيمة العالم.

ومملكة الصمير هي قرارة كل إنسان أبقي من ممالك العروش والتيجان
وبساطة الإيمان أصلح من حذلقه العلماء والحفاظ، ولولا هذه الحذقة لما
استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى
مجرافه في كل زمن، فمن دأب الحذقة على الدرام أن تحتهد لكيلا تفهم وليس
من دأبها أن يحسد مره لكي تفهم، وبعدها في كل أوبة سبب لتعطيل كل فهم
وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور بصرفه حر الأمر عن بوطن الأمور
وهذه الحذقة التي حالت بين المتحذقين قديما وبين كل عمل وكل وصية، فلبس
عنده مستمع لنبي ولا حكميم.

إن الحذقة هي التي أبت أن يفهم حين قال اقاتل إن العصفور المبكر يحد
الدودة قبل غيره. أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه سامع على وفيه نصيح
لمن يريد أن يسمع ويعمل ولكن الحذقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة
إن الدودة لو لم تنكر قبل العصفور لما أكلها العصفور

إن الحذقة تقول هذا لأنها لا تعمل، فهل تراها كسبت شيئاً حين خسرت
العمل؟ كلا فإن سخريتها تستهيم إذا كن أساحير أسلم للدود من المنكر،
ولكنهما يستويان على الأقل، إن لم يكن التأخير خليفاً أن يعرض الديدان لمئات
المنقير ومئات العيون، بدلاً من فرد منقار وفرد عين

كذلك يقول السيد المسيح من طيب منك رد عن فأنعصه قمصك مع الردء.
فتقول الحذقة ولماذا يحق للطالب أن يملك قميص والردء معاً ولا يحق لمن
يعطيها أن يحتفظ بهما في حورته؟

أفليس في قول السيد المسيح ما نفهم ؟ بلى، فيه ما يفهم وما يصحح فهمنا على صلال، ولكن الحذقة لا يريد أن تفهم ولا أن تعمل، ولا تريد إلا ظهوراً «على حساب» الفهم والعمل كما يقولون، ولولا ذلك لما غلب عنها أن الحديد في الأمر هو متحان المعطي الذي يقتدي به في الإحسان، وإن طالب لرغد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة، وإنما الخلاف الذي يحتاج إلى جديد هو قيمة الإعطاء من فضيلة السماح والإيتار.

لقد كانت أدينا تدور على محور الشر والبعثاء والنفاق، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور، وإذا انتقلت منه إلى محور القناعة والحيث والحب والصديق فلا مشاحة في قياس المسافات ولا تقدير المهادير.

بل نقول إن الرسالة كاملة وفيه ولو لم يكن هذا الانتقال إلى حين وفي حين محدود، فإنما العبرة بإضافة هذه القيم الجديدة إلى حساب الإنسانية، وشأن الإنسانية بعد ذلك وما تستطيع، وشأن المرسل بعد ذلك وما يستطيعون من جديد لرسالة كلما احترقت الجادة أو احتاج ضمير الإنسان إلى محور جديد

ملكوت السموات

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(القصص ٥٦)

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كن دعوة ولا سيما الدعوات ادينية الكبرى، وما من شيء هو ادعى إلى التبصر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي إليها دعواتهم على غير قصد منهم، بل على خلاف ما قصدوا إليه، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقصد والغايات فينبو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها، كأنما الدعوات وادعاة معاً وسيبه مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية، نون أن يعلم الله أو يعلم المستجيبون لها إلى أين تسير، وإلى أين يسيرون

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاسبحابوا إلى الدعوة الحميدة ولم يدخل المسلمون مكة دخول العالين المنصرين ؟

إن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت فاتحة الفتوح الإسلامية، فلو أنها ارتفعت من تاريخ الإسلام لتعير ذلك التاريخ، ولكنه لا يستغيب فيما نعتقد بروال ذلك الحادث الذي كان محسوباً من العقبات، بل أكبر العقبات في صدر الإسلام.

وماذا لو أن بني إسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غانة الأمر أن نبياً من الأنبياء يضاف اسمه إلى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم، ويبقى إسرائيل في عزتها كما كانت، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ مسسة لا تذكر، أو تذكر كما تذكر أصغر القرى التي تحكمها رومة الخالدة؛ رومه انقياصرة والخبارين المالين.

فمما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد إسرائيل بدعوته الأولى، ومن البديه أن يريدهم قبل أن يريد أحداً غيرهم، لأنهم عشيرته الأقربون، ولأنهم أصحاب الكتب التي تبشر بالسلام وتترقب لرسول المخلص من وراء العيب

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم: ماذا ترونكم للامم؟ لأنهم أبناء أمه أولى بها أن تستمع إلى الحق من أبناء الأمم كافة، وهم غير مختارين

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة، ويحذره على العموم أن يطرحوا الألئ تحت أقدام الخازير

وعلى رفقته في الخطب كان يستهر لمراه القبيقيه أنى أرادت منه كرامه من تلك الكرامات انى يخص بها أبناء يعقوب، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الجز من أبناء البيت لينقى به إلى الكلاب.

وكان هذا الإيثار بديهاً كم قلنا من وحي العطرة ووجي الكتب والدراسة، وكس كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يراد لها النجاح، فمن المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليفة أن تقصى الأقربين، ولم يكن يقيناً ولا شسبه دالسين أن ندسى إليه أحداً من أوثك الغرباء الموتورين الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويهدلونهم سوء الظن وتارات الانتقام

فماذا لو استجاب لمسعود إلى الدعوة عسى أحسن حال وأسر احتمال؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد؟

إن استجابوا جميعاً إلى الدعوة فقد دحست الدعوة فى بطون « لعصبية العصرية»، ولم يعير بها شىء فى غير ذلك الصاق المحدود.

وإن لم يستجيبوا جميعاً، واستجابت منهم فئة من فئات شتى، فعاية الأمر أنها فرقة بضاف إلى فرق اعريسين والصنوقي والآسين والعلاء، بل قد حدث فعلاً أن فئة من بنى إسرائيل فلتت المسيحية على أنها «طائفة يهودية» سميت بالطائفة «الأيونية» أى طائفة لعقراء والسراویش، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين !

بل حدث فعلاً أن كنيسة مسيحية يهودية محذرت بيت المقدس إلى شرق الأردن، واعبرت كنائس إسرائيل وأقدمت شرفاً حيث تحرم الإقامه على سائر إسرائيل، وظلت ردحاً من الزمن لا هى إسرائيلية حالصة ولا هى مسيحية خالصة، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الأيونيون.

لقد مرتبت المثل احدى ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين مثل الأمير الذى أولم الولايات، ورس إلى الصفوة المختارين من الأقرباء ولصحاب يدعوهم

أن يفرحوا معه وبشاركوه في طعامه وشرابه فلم يحبه منهم أحد وتغل كل منهم بعة تزجره إني م بعد يوم الولاية، فاقسم لا يحضرنها أحد ببعته الدعوة، وليمالأها بمن حضر ومن لم يحضر، ومن ثروته الأربعة أو تقدر به الصديق وأنى أن يبقى مكان على المائدة خواً من ضعف وأصبح كل طارق صيفاً مفضلاً على الرب والسعة، وكذا تعمرو وليمة السماء التي بتأخر المدعوين إليها، ويتقدم إليها من هم أحق بها، لأنهم يشبهون ما يعافه المدعوون المتطرون.

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف في دعواتهم منكره وألحفوا في إنكاره «إن الحجر الذي رفصه البذون صار على رأس الترابية..» من مكوت، الله يتزع منكم ويوهب لأمة تؤتبه ثماره، من سقط على ذلك الحجر رصه ومن سقط لحجر عليه سحقه.. هناك يكون البكاء وصرير الإنسان، هناك يدعى الكثيرون ولا يفتخرون إلا القليلون».

ومنذ استعكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين فنت وصاياه التي يحص بها «الأمة» ويفردها بين الأمم، وكثرت في وصاياه الآداب الإنسانية التي يستحو بها الإنسان ملكوت السماوات، فرداً فرداً كائناتاً ما كان شأن الأمة التي ينتمي إليها، وفهم السامعون من الملكوت أنه حو من يقصده من ندى الإنسان أجمعين.

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة، من لا يذكر بنقط واحد من جميع الأناجيل، فإن مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات، ويتفق أحياناً أن يذكر في جميع الأناجيل باسم ملكوت بن الإنسان.

كذلك يبدو من بعض الأقوال أنه حاضر على الأبواب، وإن من الأحياء السامعين من لا ينطق بالموت حتى يرى ابن الإنسان آتياً في ملكوته (١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى أن الذي بعيد وأن الضلال في دعواه طويل الأمد «لا يضللكم أحد، فإن كثيرين سيأتون باسمي فيضل بهم كثير. وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين، الحين بعد. كل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ويحدث محاعات وأوبئة وزلازل في أماكن شتى وهذه كلها بوادر الأوجاع، ويسلمونكم يومئذ إلى الصيق فيفتلون ويتعصمكم جميع الأمم في سبيلي.. ثم يأتي أنبياء كدبة كثيرون ويصلون كثيرين، وتفتت محبة كثيرين، ولكن الصابرين

إلى المنتهى يتجوز، وينادي ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم». (٢٤ متى).

وأحياناً يأتي الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجئ مجهول الموعد «اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم.. ولو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق ما سرى.. فاستعدوا أنتم كذلك. لأنه في ساعة لا تخطر لكم ياتي ابن الإنسان».

ومن البهوات ما يقول إن ابن الإنسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وإن بودره وشيكه أن تظهر في هذا الجيل

ويشار إلى الملكوت أحياناً بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره» (٦ متى) «وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات» (١٢ متى).

وأحياناً يطلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح «أجعل لكم ملكوتاً كما جعل لي أبي، ويقول لوف: إن التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح داهب إلى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال». (١٩ لوقا)

وقد رأينا في كتب التعليقات والتفسيرات أن هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير السلبال بين ذوي الآراء، كأنها أمر غير متظر في تقديرهم. وهي في اعتقادنا أقرب شيء إلى البدهاة وطوائع الأمور

فيجب أن نفكر أولاً أن السيد المسيح قد أشار حتماً إلى الملكوت الذي يفهم كل سامع أنه هو العالم الآخر، وأنه يأتي في نهاية هذا العالم وأنه إذا أشار إلى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبدهاة إلى النبوءات التي جعلت له علامات ولم يزلوا كالمفسرين والمترجمين الذين قرئوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو بنهاية الألف السادسة، واحتفلوا هل سأل السيد المسيح المرتقب ثم يعود، أو ينتهي العالم الأرضي بمجسته ولا يكون مرجعه بعد ذلك في هذا العالم الأرضي المعهود ١٩

وطبعي جداً أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون إلى تلك النبوءات ولا موضع للاستغراب في هذا الصدد. بل الغريب أن يخلو كلام السيد من هذا التنوير، سواء ظهر في ذلك الوقت أو ظهر بعده في زمن تنقطع فيه الأنظار إلى نهاية وإلى تحقيق النذر والبشائر والعلامات.

هنا إذاً نلاحظ هذا الملكوت بهذا المعنى في تقديرنا فليكن في الحساب أنه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى، ولا سيما الملكوت الذي تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة، كما هو الواقع في جميع الرسائل.

وفي رسائل الأنبياء لداعين إلى العالم الآخر جميعاً ملكوت رضوان يتحقق في السماء وملكوت يعمر له الناس في هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها في هذا العالم فيستحقون بها الملكوت في العالم الآخر

هذا الملكوت أيضاً - ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الإنسان - يقع في البال حتماً أن السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه.

ولابد من لبس هنا مع اللبس الذي يحدث من توحيه المعنى حياً إلى ملكوت القيامة وتوحيه حياً إلى الملكوت قبل يوم القيامة.

أما اللبس في فهم الملكوت الذي يدور على الرسالة المسيحية أو رسالة ابن الإنسان - فمرجعه من جهة إلى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها فالملكوت في الدعوة التي يخص بها الإسرائيليين غير الملكوت في الدعوة التي لا يخصص بها، بل لعلمهم بطردون منها، وتعم الأمم أجمعين.

ومرجع اللبس من جهة أخرى إلى سمو الرسالة على مدارك السامعين، ولا مناص من هذا اللبس إذا دعى السامعون إلى رسالة أسمى جداً مما يرقبوه وتطلعوا أن يفهموه.

ولا نرى أن لمسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس اللامبذ والأنباع قد برزت في موضع من المواضع ببرزها في الأسئلة التي تواتت منهم عليه وهي الحيرة التي دلت عليها هذه الأسئلة، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذي يستدعي من الإنسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل إليه إنساناً جديداً كما يدخل الطفل الوليد إلى هذا العالم، وحتى بعد بلوغ الدعوة حتمها ظل اللامبذ يحسدون أن الملكوت يأتي بدولة بني إسرائيل. «مسألكم قائلين: يارب! هل في هذا لوقت نرد الملك إلى إسرائيل؟ فقال لهم ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي أودعها الأب سلطاناً. لكنكم ستعلمون قوة متى حل عليكم الروح القدس، وستكونون شهداء لي في أورشليم وفي اليهودية جميعاً. وفي السامرة، وإلى أقصى المسكونة.

ونعود فنقول إن اللبس الطبيعي جداً في هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين، وإن هذا انفارت البعيد هو الذي يؤدي بنا إلى فهم الملكوت كما

أراد السيد المسيح، لأنه مكنون لم يكن في صاغة التلاميذ أن يحقوه ويصوروه، وكل ما في أسباطهم أن يذكروا له أوصافا متعرفة سمعوها فسلطوها وانتقصوها كما يلتفت السامع ألفاظاً من لغة لا يفهمها، فإذا أمكنت بعد ذلك أن تخرج تلك الألفاظ مفردات متنسقة مفهومة على صورة واحدة فذلك هي الآية على صحة تلك الصورة، وبها هي الوصف القصير.

والأنجيل قد ذكرت وصفاً متناسقاً للملكوت في مواضع شتى ذكرت مملكة ليسب من هذا العالم، وذكرت مملكة قنمة في صميم الإنسبن في كل زمان، إذا ربحها فهو انعم وإن خسرها فالعالم كله لا يجديه وذكرت مملكة لا يدخلها الإنسان إلا بنفس طاهرة صافية كنفس لطل الرى، وذكرت مملكة لا يفتحها لسف لأنه ما بالسيف يؤخذ فبالسيف بضيع «ولما سأل الفرسيون متى يأتى ملكوت اله أجابهم إنه لا يأتى بمراقبة ولا يقول قائل هو ذا هاهنا وهو ذا هنال، لأنه هو الآن في داخلكم». (١٧ لوقا)

فإذا من استغربوا لأوصاف ولم يروا فيها إلا التناقض والشكوك ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة؟ وعلى أية صورة كانوا يسطرون أن تأتى غير هذه الصورة مع المنفوت بين مشارك انعم ومدارك التلاميذ، ومع حضور الملكوت في أذهان السامعين بمعنى القيامة ووروده أحياناً في كلام السيد المسيح بهذه المعنى بل كيف كانوا يسطرون أن تأتى على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطوراً لاند منه بين كلام موجه إلى أمة خاصة وكلام موجه إلى جميع الأمم ؟

إن الخلاصة لغزلة موحودة بين السفس والحبوب، ولكن الغيب في الغربال الذى لا يعمل عمله وفي حامل الغربال الذى يفسى أن، الغربال لارم وور موضع لزومه على الحصى.

إذا جاعنا رجل لا يعرف اللغة المسيحية، ووضع أمامنا حطوطاً وأشكالاً، وتسمى لنا أن تخرج من تلك الخطوط وأشكال كلمات يتم بها جملة مفهومة، فذلك أمة الآيت على صدق الصورة المنقولة، وتلك الصورة إنس أحق بالاعتماد عليها من كلام الدفل لى يستطيع أن يريد على الكلام أو ينقص منه، أو يدخل فيه التحوير والتبديد حسب هواه.

تحولت الدعوة من خاصة إلى عامة ومن أمة واحدة إلى سائر الأمم بل إلى «الإنسبن» فرداً كان، أو عنواناً يشمل كل إنسان.

وحدث هذا التحول و لعالم الإنسانى متهى للدعوة الجديدة من أعماق وحدانه، وإن لم يكن يسيراً عيه أن يفهمها حق فهمها، أو يسير أعوارها.

والعام الإنسانى نهياً لهذه الدعوات على حسب حاجته إلهاء ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج إليها أو إلى شىء من قبلها. مثله فى ذلك مثل التربة التى ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعششة إلهاء. ولا محل لها للحديث عن الفهم ويسير الأعوار.

كانت العلاقة العائقة، أو العلاقة الإنسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام، ولكنها قد وجدت فى بقاع من الأرض ولم توجد فى سرائر الضمير ولعل الناس قد احببوا منها نصراا العدااء والبغضاء وكبرياء الجنس وبفور العصبية، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة وينطلقوا من وراءها إلى الأخوة والصفاء.

بن تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأه الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء، فانتسعت رقعة العالم المتوحد لأناس من جميع العصب ولسمالاب، لا يشعرون بينهم بوحدة غير العبودية والضعف، إله فى ربة الرق المصرح أو فى ربة أخرى لا تقف عليها فى لقسوة والقمعة، وهى ربة لصرمان والقبوط.

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم لوشى عن رسول يجمع الأقوام إلى دين واحد، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد مبه أن يخرج للدين رسلاً تملؤهم الحماسة لروحيه ونفص منهم على من حولهم فصلاً عن العندس عنهم، ولم يعرف التاريخ قط داعيه وثياً تجرد للتبشير والإنداء غير حافل بالموت ولا مرمدع بما يقيه من روجر الإرهاب والوعيد، وكل ما يحدث فى الأديان لوثنية أن تغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المفهورة فتجعلها على طاعة أربابها كما تجعلها على طاعة قرابينها وأحكامها، وتفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعده من الأرباب والأصنام.

أما الحماسة الروحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الإنسانى فلم تعهد قط فى عبر الأديان الكناسة أو الأدبر الإلهية، ولم يكن لها رس قط غير ارسلى المؤمنين بيله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود.

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطروداً في قومه، ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عنهم، فوجد فيه العالم بعينه في ساعة الحاجة إليه، وإنها لآية من آيات التي يطول عددها تدبر الباحثين والمؤرخين، لأنها من التوفيقات التي يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتبصير والتقدير.

وتم على يد هذا الرسول بفيض ما يتم على أيدي الوثنية في صولتها وسلطانها، فإن الوثنية تتعلب لأنها دين الدولة الغالبة، أما هذه الرسالة - رسالة الملوك السماوي - فقد نشأت في عشيرة قبيلة ذليلة، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية، فلم يمس غير أجناس معدودات حتى غرت الدولتين واسسولت على العاصمين، وصح ما روه عن جوليان - سواء فله أو لم يقله - فانتصر «الجيلي» بملكوته السماوي على مماليك لقياصر، وضم القياصر إلى حاشيته، فعنه يتأخنون ما أخنوه باسم قيصر وما آخنوه باسم الله !

الباب الخامس

أدوات الدعوة

قدرة المعصم

إذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيان على الأقل، وهما أن العالم كان عند انتشارها محتاجاً إليها، وكان مستعداً لسماعها، وهما شيان مختلفان لا يكرران في معرض المرافقة والمناظرة، لأن الحاجة إلى الدعوة كعبية، والاستعداد لسماعها كالشعور بضرورة أو كاستعداد لطلب النواء وقد يتفقان في وقت واحد، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب النواء ولا قبوله إذا عرض على العليل.

وجملة ما يفهم من تصور النمهندية التي لحقت الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجاً إلى الدعوة المسيحية، مستعداً لسماعها، سواء قصرنا الكلام على عالم إسرائيل أو عمما به العالم أجمع.

فعالم إسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر ويومعه في تلك الحقبة من الزمن، والعالم المعمور كان يؤمن إيماناً «سلبياً» بإفلاس الوثنية وإقمار النفوس من الرجاء، وكان عامته في بؤس ويأس، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للصوف، من كان منهم يفكر بأن اللايقورية أو بأن دائره هية، ومن كان مطبوعاً على التدين والبحث في شئون العيب، بأن نقطة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم، أشعائر من الفرائض والعبادات

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والواقية والحل السرية فهم إذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء، وأسم ما يقال عنه في صدد العقيدة لقصة أنه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها، وأنه قد يتفتح بقبولها فكرر شعور الخواء من أسباب الإقبال عليها والرغبة فيها.

كان العالم في عصر الميلاد محتاجاً للعقيدة مستعداً لسماعها، ما في ذلك ريب، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خصباً أن يظفر تلك العقيدة عفو صغراً يغير جهاد من رسلها ودعائها، ويغير كفة عدالة في أولئك الرسل والدعاة.

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداد لسماعها مغنياً للعقيدة عن أدوات الفلاح والحاج، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس وإجساب الأسماع والتغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد.

وقد كانت هذه القدرة موفيرة هي معلم المسيحية، ويحوي سمي المعلم ويؤدي به هي مختلف اسجاع والمحاف، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعلم وإحياء روحى حيوى من طريق التعليم

تودى المسيح بالمعلم هيما روية الأناخير مرت' ناداه بهذا لقب بالاميدى كما ناداه به حصومه ومن يستمعون له غير متلمذين وغير مخلصين

وكن ند وهم له بهذا لقب لأنهم يجدون في كلامه عمما وسعما ذلكم والأسفر، وبديهة حاصرة في الاستشهاد بها ولتعقيب عسى ويكفى ما بين أيدينا من الأناجيل الحزم بأنه كان ميراث المزامير وكان يحفظ كتب رُميا وأشعا وجرقا فضلا عن الكتب الخمسة اتى تسبب إلى موسى عليه السلام، ومصلا عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام.

ويرجح بعض المؤرخين أنه كان يعرف اليونانية وأن الحسيث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره من أبناء الجليل، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون إلى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية، ومعهم من كان يحتاج إلى صيد مقدس في الأعياد، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون إلى الإسكندرية وبلاد الأغرقي لا يفهمون غير اليونانية مع أبناء وطنهم هناك، فلا عرابه في معرفه السيد المسيح باليونانية كم كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل، ولكن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء، وأنه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء، وأنه قد عرف اليونانية فإنم كانت معرفته بها معرفة خطب ولم تكن معرفة دراسية، لأن أقواله جلت من الإشارة إلى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية مسسوبة إليه تشعب عن أصحها الآرامية بها فيها من الجساس أو من قواعد البلاغة وإيقاع الألفاظ.

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الإسرائيلية لم يكن فريداً بين أجيال اليهود في تلك الأونة، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والعلماء يحفظون من تلك الكتب ما يحفظ لسيد المسيح، واقتدروا على الاستشهاد بها ولتعقيب عليها بمعارضة هوية وبديهة حاصرة، ولم تكن لواحد منهم كفاية العلم الذي يث الحياة الروحية في النفوس وينفث في الحواس

تلك الراحة التي تشبه راحة اسريرة، حين تناسق فيها، لأنعام التي كانت
منافرة قبل أن تجمع وتصاغ

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صانحها بغير مشابهة
ولا مناظرة في القوة والنعاذ.

كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها، فذة في بلاغتها وتصريف
معانيها، فذة في طبعها الذي لا يشبهه طابع آخر هي الكلام المسموع
أو المكتوب، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب، مع غلبته
القوية على الأذهان والقلوب.

كانت في تركيبها نمطاً بين النثر المرسل والشعر المنضوم، فكانت قباء خاصاً
ملائماً لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال، وهو نمط من النظم لا
يشبه نظم الأعاريص والتفعلات التي يعرفها هي اللغة العربية، لأن هذا النمط
من النظم غير معروف في اللغة لامية ولا في اللغة العبرية، ولكنه أشبه ما
يكون بأسلوب الفواصل المتقبلة والتصريحات المرددة التي ينتظرها السامع
انتظاره للقافية وإن كانت لا تتكرر بلفظها المعاد.

كان أسلوبه في إيقاع الكلام أسلوباً أكثر فيه انترديد وانتهير، وليس في
الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد،
كما في هذا المثال

«اسألوا تعطوا

اطلبوا تجدوا.

اقرعوا يفتح لكم.

لأن من سأل مأخذ، ومن طلب يجد، ومن يفرع يفتح له الباب.

من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه خبزاً.

أو يسأله سمكة فيعطيه حية.

أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً.

فإذا كنتم - وأنتم أشرار - تحسنون العطاء للأنعام، فكيف بالآب الذي في
السماء يعطي الروح القدس لمن يسألون».

أو كما في هذا المثال

«كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الإنسان،

كانوا يأكلون ويشربون ويترجون ويتزوجون، إلى اليوم الذي دخل الفس وجاء
لطوفان وأهلك الجميع.

كذلك هي أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويعرسون ويسون، ولكن اليوم
الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطرت ناراً وكبريتاً من السماء فأهلك الجميع

هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الإنسان،

في ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته في البيت فلا يهبط إليها
ليأخذها

ومن كان في الحقل فلا يرجع إلى الوراء، ألا تذكرين امرأة لوط ؟

من طلب الخلاص لنفسه يهلكها، ومن أهلكها يحييها.

أقول لكم واسمعوا في تلك الليلة يكون اثنان على قمرش واحد هوأخذ
أحدهما ويترك صاحبه.

وتكون ثنتان تطحنان، تؤخذ إحداهما وتترك الأخرى،

ويكون اثنان في الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك.

... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور».

* * *

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم .

«يا أورشليم، يا أورشليم !»

«يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين،

«كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها

«ولم تريد .

«هو ذا بيتكم رهين بالخراب ».

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

«يا سباب أورشليم »

«لا تبكين علي، وعلى نفسك وأولادك فابكين.

«أيام يعولون طوبى للعواقر و ليطوب النى لم تلد والثدى التى لم ترضع.

أيام يناهون الحنائل أن تسقط عليهم، والأكام أن تكون عطاء لهم.
إن كان دالعض الرطب يصنع هذا، فاليايس ماداً يصنعون^٤»

* * *

هذه النماذج فيها بعض دلالة على أسلوبه في تركيب لفظ وسبق التدبير
والذكير.

أما أسلوب المعنى فقد أشتبه منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب
الأمثال، ومنه «لقالب الذي يعول على الرمز والقالب الذي يعول على الحكمة،
والقالب الذي يعول على العياس، والقالب الذي يعول على التشبيهات، وكلها
تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي يفرد به بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير،
وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال.

فمن نماذج لشر الذي يعول على الرمز مثل الرارع و لنور «زارع خرج
ليزرع، وفيما هو في الطريق سقط بعض لنور هجأت طيور اسماء وأكله،
وسقط بعضها في مكان محجر حفيف الشربة فسقت على الأثر ثم لم يستأن
اشرقت عليه الشمس فاحترق وأدبم يكن له عمق في جوف الأرض جف،
وسقط بعض لنور بين أشول فطلع الشول وخقه فلم يثمر، وسقط غيرها في
الأرض الحيدة فأعطى ثمرأ بصعد ويمو فأنى واحد بثلاثين وآخر بسدين وحر
بمئة من له أدنان للسمع فليسمع».

ومن نماذجه مثل قنيات العرس «يشبه ملكوت اسماءات عشر عذارى أحدن
مصايبهن للفاء العريس» خمس منهن مملئات وخمس عاملات أما العاملات
فقد أخذن المصايب ولم يأخذن معها زيتاً، وبما العطش فأخذن الزيت في
«نيتهن مع المصايب، وأبطأ مقدم العرس فعلنهن ليعأس جميعاً، ثم علت
الصيحة عند منتصف الليل. ها هو ذا العريس قد أقبيل فأخرجن للفداء، فالتفتت
العاملات إلى مصايبهن تسفهن وسألن زميلاتهن قليلاً من زيتهن فأنحنهن
لعه لا يكفياً فآذهبن واشترين حيث يباع. وفيما هن داهيات قدم للعريس،
وصحبته الحاصرات المستعذبات إلى محفل لرفاف، ثم حادت لغائبات وقد أغلق
الباب وطقق بنائس، أفنح لنا يا سيد.. أفنح لنا يا سيد. فأجابهن من أثنى؟
إني لا أعرفكن».

ومنه قوله «أنا خير الحباة.. من يعبل على لا يجوع»

ومن نماذج أمثال لدى يعول على الحكمة «لا تطرحوا لدر أمام البصائر»
«بالكيل الذي تكيلون يكال لكم» «أيها المداوي دأو نفسك» «خمر جديدة هي
رفاق قديمة» «لا تدع يسرك تعلم بما تصنع بميتك» «من ثمارهم تعرفونهم»
«لا كرامة لنسى في وطنه».

ومن نماذج أمثال الذي يعول على القناس «إن كنتم تحبون من يحبونكم فأى
فضل لكم؟ أليس ذلك شأن العشارين؟»

ومن في نبيكت من يكررون عليه صحة الحاضرين «لا حاجة بالأصحاء إلى
طبيب، إنما لمرضى يحتاجون إلى الأطباء»، ومع «إن كان النور الذي فيك
ظلاماً فالظلام كم يكون»!

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه «أنتم ملح الأرض،
فإن فسد الملح فبماذا يصبح» إنه لا يصلح إذن إلا لأن يلقى على الدراب ويداس،
أنتم نور العالم، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل، وما من سراج يوقد
لبوصع تحت المكبل ولكنه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار»

ومن نماذجه «لا تكبروا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس ولصداً
وحيث يعقب السارقون ويسرفون بل اكبروا لكم كنزاً في السماء حيث لا سوس
ولا صدا ولا لصوص، وحيث يكون الكنز يكون القلب»

وقد أثر عن السيد المسيح في جميع لأمثال حب انفاضة دين الاضداد بجلاء
المعسى وتوصيح لفوارق من وراء هذه المقاسة «يروى القذى في عين غيره ولا
يروى الحشبة في أعينهم»، «يحاسبون على النعوصة ويبعوثن الجص» «في
الصاهر جدران مبيضة وفي الباطن عظام نخرة» «غنى يدخل باب السماء كحصن
عليظ يدخل في سم الخياط».

ومعظم هذه لأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر جواباً عن سؤال،
أو تعقيباً على حادث عارض، أو تقريباً لكبر، مبسراً أن يسترسل فيها لعلم
النصير إلى غير المناسبة لتى توجبها، ولهذا ترجح بعض الشراح المحدثين أن
الأمثلة، المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة
واحدة، وأن الخطبة على الجبل - وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات
جمعت من منقرفات كانت منجمة على حسب الموضوعات في أومانيها
ومناسباتها.

وإذ كانت طائفة من عذات السيد المسيح حاشت بنفسه في أوقات
مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المسوقة في الديهة الملهمة، فقد
كانت سرعة الديهة تسعفه في غير هذه الأحوال، فسجري كلامه في محراها
الذئوب على سبق سهر قد يظن به انتحضير لأنه منتظم غير مرسل، ولكنه في
الواقع لم يكن محضراً قبل ساعته، وعاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر
الذي سجود به لم سخل قط من البهكمس فيه وأنه يعود اسفكير في المواقف
المتشبهة فانسبكت قرأت البعير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة،
وهي عادة يعرفها من تعود التفكير والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين
الجماهر، وقد سمعت خطباء جاءوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من
لحظات الاربعال القياض دين لشعور المحبوب والحماسة المسعثة من القابل
والستمعين فهم مرتجلون يخيّل إليهم قبح غيرهم أنهم يسمعون كلاماً
معهوداً، ويوشك أن يقسموا أئبن يا ترى سمعوه قبل الآن؟ والواقع أنهم
بقوه من وعينهم الخفي إلى وعينهم لطاهر فكر شأنهم كشأن سامعيه في
اسمعرايه، والواقع أيضاً أن ناس حين يستمعون إليه يرويه عريباً وعريباً في
وقت واحد عريباً لأنه كان يساورهم ولا يدركونه، وقريباً لأنهم تمثلوه بفضل
بلاغة القائل بعد استعصائه على الإدراك.

* * *

ومن كان كالسيد المسيح ممد طعوله على التلاوة في كتب الأنبياء
وتنامت على سمعه ولسانه أصداء المرير المرتلة، والأمثال المرددة، وستقامت
فطرتة على اوحى والإيحاء فليس أقرب إليه من أن ينطق بكلام يحبك في
الأسماع بهائف الصحف الأولى وهو من سمع فؤاده وإملاء مديته، وهذه هي
الديهة التي كان يعينها حين يوصي بلاميذه بالاعتماد على الصنع وترك الافتقار
بالترويق والنميق قبل الساعة التي تدعوهم برأعها للخطاب

ولعن سامعي العصات الدينية في عصر المسيح قد سمعو الأمثال في قوائنها
مرات كثيرة، ولعنهم كذبوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبداً أو استمعوا إلى
خطيب في غير المعابد، فإن نقاد النيان، لعبري والأرامى يربون هذه الصيغ
الدينية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين. فممكن المسيح
مصدق بالأمثال ولا لقوائنها التي يعول على الرموز أو لحكم أو تشبيهات
أو منطق الفلاس، ولكن الأمر لتحقيق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط

أريحته كذلك الأريحية التي كنت تشيع في أطوائهم وهم يصعدون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يباحيهم بالعراشب والعنات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولي عليهم من عصفه الطيب وحنانه الظهور.

ومن ألسان ما يروع ويهول ويخيّل إلى سماعه أن يستعد من مصدره كلما أصغى إليه، ومنه ما يجذب ويقرب ويحلل إلى سامعه أن كل كلمة منه ترفع حَجراً أو تدس مسافة وتزين وحشة بين القلب والسميع.. من هذا السرد كان بين المعلم المحبوب القدير عى تقرب سامعيه بالعطف والإفهام، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام لجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر، وتتفق فيها الأشباه وبين الفوارق بين الأضداد فتنبأ بالظلام سدفه بعد سدفه ويعقبه النور قساً وراء قس، ويد حلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد صوره مشعوهاً بالرؤية لأول مرة، أو شعور المدلج الذي يصبح أسيل من السحر إلى الصباح هدية في رفق ورحمة، واقترب في غير عناء ولا اقتحام.

هي وسعنا أن نحيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعركة، أو يقتربون منه بالعطف والمودة.

في وسعنا أن نحيل من ثم فصل الرسول في الرسالة فلا رسالة في الحق بغير رسول، ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح، فإن مصدر الرسالة الروحانية هو ربها وجوهرها، وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفوذها، وكل ما عداه فروع وزيادات.

لقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح، هداية إنسان لا صولة له على أحد غير العصف والإلهام ومكاشفة القلوب والأفهام، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولي بالسبق في الميدان لأنه صاحب سبق في الدعوة وصاحب سبق في الشهادة ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها، وصاحبها هو المسيح وكانت حاجة العالم كله إلى الدعوة المطلوبة لا تكفي بغير صاحبها لقابر عليها وأنصائح لإقامتها، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالهداية ما هو محتاج إليه

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة أنهم دعاة، أي أنهم شركاء للمعلم في نشر الدعوة.

أما افضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو أنهم مسجعيون، هم يكونوا دعاة يدعون غيرهم إلى صفوفهم، بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق إلى الاستجابة ثم تلتهم صفوف أخرى من أمثاله ليس قدامهم قائد ولا مفود، وكلهم في قبول الدعوة سواء.

كان فضل التلاميذ في البداية مسجعيون أنهم أول العاملين، ولأن تعلم هذا لفارق بين طبيعته الفعلي وطبيعته العامة

فالتلاميذ يلبسونه إلى السيد المسيح هم أمته الصغرى كثر مع الزمن على هذا المثل، فصاحبوا أمة كبيرة تقدي تلك الأمة الصغيرة في الاستجابة فهم سبقوا أعقبهم لاحقون من قسبهم وهم الصف الأول في اجترار الواحد، وليسوا هم جيشاً يعامل جيشاً آخر بالدعوة فيلبس ويصوى إليه

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرساله ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهي لا تحالف هذا النموذج في التكوين ولا في الطراز، ومن هنا يقول إن التلاميذ لم يكونوا دعاة فرصوا عقيدتهم على أناس غيرهم، ولكنهم وغيرهم جميعاً مستجعيون للدعوة فوجاً بعد فوج ورعلاً وراء رعين.

في الدعوات قادة ومقبولون

ولكن التلاميذ هي الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم، بل كانوا هم السابقين من صفوف ملاحقت وتعاقبت، لا فرق في بينها بين أولي وآخرين.

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة مهم جميعاً من بيئة واحدة، وربما كانوا جميعاً من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة، كأنهم وقعت عليهم الفرقة بين المشابهين والمنماثلين، ثم امتدوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يد السيد المسيح

وكن اسيد اسيد ينظر إلى بعضهم فيقول به انبعسى، فيتبعه ولا يظهر عليه أنه أفضل من غيره بحزبة عقلية أو نفسية إلا أن تكون المرة التي يتوسمها فيه اسيد فبعده من أحبها، وهي مزلة الإصغاء و لا تناع

ولم يد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين، فهو أصوات الفرقة التي عشر احزن لكبوا في مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول، لأن كب عنهم ولا شل هي الكفة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد ومن هذه النسبة، فلم يكن منهم علم بارز لا ينكر بهذه النسبة هي أية حبة يقع عليها لبطر للوهبة الأولى، فلا يقال في واحد منهم إنه واحد من مائة أو واحد من ألف لا ينكر، أو أن واحداً منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله أو حصروا كما حضر على معهم التقدير بل كل ما يقال إنه مجرد تشبه غيره من الحنين، والفضل للقد بعد ذلك فيما طرفة من السرب والتهذيب.

وقد وقع عليهم الاختيار كما في الأدبيل

ولكن لا يسو من ذلك الاختيار انه كان اختياراً نادراً أو مسيئاً على القائد الحكيم الضعيف، ولعل لعامل الأكبر فيه أنهم مخبرون من طائفة متعارفة متألقة، وأن اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بداء من بيئات منبعدة، فإن المتألفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضاً من المتباعدين

ومحسب أن التشبيه بالنحيد هنا حقيق أن يقرب إلى الأدهان هذا المعنى الذي يرى له المكاب الأول في فهم الدعوة وأساس سربها

فالمجنودون يقترعون، وكلهم متحالفون في شروط التجنيد ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعز من منهم فئة متجانسة فيما يراه، وكل القات الأخرى تضارعها على الحملة في شروط التجنيد.

ثم يكونوا طيبة من البشر غير طيبة، أسود لولا تلك البعثة العلوية التي نعتتها فيهم روح المعلم القدير

كان يعرف عيوبهم، وكانوا في أمسهم وإحلاصهم لا يفلطون أنفسهم في تلك العيوب.

كان يحاصنهم فلا يفهمونه فيسألوه مرئاً من لتوصيح، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكروه، وربما يهجوهم بالشك ابداء وسألوه أن يريد لهم إيمان، فيريدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه اشكون

ولم يحسب قط أنهم طود لا يترعزع وأنهم عزيمة لا تتضعصع وأنهم يواحدون
الحدة في كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوماً أمام هول من الأقوال.

فقد أنبهم أنهم سينحلون عنه، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه، وقد
لامهم غير مرة لأنهم يتدهسون على السيق أو لأنهم يستبطنون حراهم على
الإيمان، أو لأنهم - بعد وعظهم وتذكيرهم - لم يزلوا يفرقون بين الناس وبينهم
بشريعة غير شريعة الحب والعفوان، ولم يكن على القبل منظر منهم أكثر مما
يطر، أو بقوه منهم في أمانهم حالة ظهرت له في أواخرهم ولكنه علم المطلوب
منهم كله فوجد فيه الكافية، علم أنهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم، وليس
مطلوباً من الناس في العالم الواسع أن يدركوا مقصداً من الإيمان فوق مقام
الإخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب، وهذا المقدم قد أدركه لللاميذ يوم
وكل إلبسهم أن يسبحوا في أرض الله ويجعوا من أنفسهم مثلاً يقتدى به
المخلصون

فهو لم مقصد إعدادهم لبحرهم طراداً معصوماً لا عيب فيه ولا مأخذ فيه،
ولكنه قصد إعدادهم ليحسنوا انقذوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم،
ويستقبل معهم قتلهم، ويكفوا أنفسهم عاية ما يستطيعون، وقد يستطيع من
يقفهم فوق ما استطاعوه.

ومن عبارات ذات المفزى الكبير في إنجيل أن المسيح مضى شوطاً بعيداً
في دعوته ولم يقل لهم إنه هو المسيح المنتظر. فشاع ذكره في القرى وبساتين
الناس عنه من يكون؟ فمبهم من يقول إنه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى
ومبهم من يقول إنه إلياس ومبهم من يقول إنه نبي مبعوث، والمسيح لا يقول
للاميذ إنه المسيح، بل سألهم بعد شيوخ ذكره وتساؤل الناس عنه وأنتم من
تقولون أني أنا هو؟ فأنجابه بطرس. أنت المسيح. فنتهره وأوصاهم ألا يدكروا
ذلك لأحد في رواية إنجيل مرقس. أما في إنجيل متى فقد روى أن بطرس قال
«أنت هو المسيح ابن الله الحي» فاجاب يسوع وقال طوبى لك يا سمعان من
يونا أن مخلوقاً من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبى انى في اسموت، وأنا أقول
لك أنك أنت بطرس^(١) وعلى هذه الصخرة أبني كنيتي وأبواب الجحيم لن تقوى
عليها، وأعطيته مفتيح السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مبوباً في

(١) الكلمة «لأر» صفة «معنى حجر كما هي «بترس» «بيتر» هي ترجمته بكلمة باليونانية

السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في أسماوات ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد أنه هو يسوع المسيح».

أما في إنجيل لوقا فالرواية أقرب إلى رواية إنجيل مرقس «ففيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلاً ماذا تقولون الجموع عني؟ فاجابوا أنهم يقولون يوحنا المعمدان، وآخرون يقولون إن نبياً من القدماء قام. ثم سألهم وأنتم من تقولون؟ فقبل بطرس مسيح الله. فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد».

والرواية في يوحنا أقرب إلى تصوير ما قدمناه، فإن السيد المسيح أحس أن الناس يتراجعون عنه «وأن كثيراً من تلاميذه رجعوا إلى الوراء ولم يمشوا معه، فقال للثاني عشر ألكم أنتم تريدون أيضاً أن تذهبوا؟ فاجاب سمعان بطرس يا رب! إلى أين نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي. فاجابهم: أليس أنا اخترتكم.. وواحد منكم شيطان».

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء في إنجيل يوحنا «قال يسوع للشهود الذين آمنوا به إياكم إن شئتم مني كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي، ويعرفون الحق والحق يحرككم. فأجابوه: إنا نرى إبراهيم وأيسا عبداً لأحد فكيف نقول أنكم ستصبرون أحراراً؟ قال الحق الحق أقول لكم أن كل من يعمل للخطية فهو عبد للخطية، والعبد لا يبقى في البيت أبداً. بما يبقى فيه الابن إلى الأبد فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً.. أنا عام أبكم نرية إبراهيم. لكنكم تريدون قسلي لأن كلامي لا يقع منكم موقعاً.. أنا أنكم بما ربت عند أبي وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم. فاجابوه: إن أبنا إبراهيم قال لو كن أبكم لعملم عمله ولكم الآن تصلون دمي وأنا إنسان كلمكم بالحق الذي سمعته من الله. هذا لم يعمل إبراهيم وأسم تحملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إنا لم نولد من سفاح لنا أب واحد هو الله. قال: لو كان الله أبكم لكنكم محبوسين لأبى خرجت من قبل الله وأبى إليكم. إني لم أت من نفسي بل هو أرسلني... أنتم من أب واحد هو إبليس ...».

فأجابه ايضاً «الحس تقول إنك سامري بك شيطان. وبعد أن قال لهم: إن من يحفظ كلامي لن يرى الموت عابوا يقولون الآن تبين لنا أن بك شيطاناً. قد مات إبراهيم وأنت تقول إن حفظ أحد كلامي لن ينوق الموت من تجعل نفسك؟ ألعك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات».

والعبرة من هذه القصة أن السيد المسيح موصى في دعونه رمزاً ولم يذكر تلاميذه أنه هو المسيح الموعود، وأنه كان يعلم من يطلبون لتلاميذه أنهم لا يركزون ما يقل، ولا يفرقون بين لغة الحب ولغة الروح أو لغة المجاز، وأنه أشفق يرمي أن ينفض عنه تلاميذه المحترمين كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ وزعموا أنهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم، بما يبوه الله بالأعمال وإنما نتم بأعمالكم أساء إبليس

وقد علم المسيح أنه لن يبقى طويلاً مع طلاب التلمذة عليه إلى الأبد، وأنه لن يبقى معهم حتى يطلعوا من الدابة والإيمان تلك الغاية المتلى التي ليس فوقها غاية قرب صمد معه أناس يصنعوا بارة ولا يحسبوا قهمة بارة أخرى ولكنهم يحسنون الطر ويترقبون الأمل في الخلاص من هذ الطريق، فتولت على علاقتهم خير من المتعلمين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه

* * *

والشائع أن التلاميذ كانوا طائفة من صياصي السمك هي بحر الجليل، ولمفهوم من هذا عند أناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع أنهم في طبقة عمال الصيد الأمير، ولكنه قههم متعجل مبنى على قباس غير صائب. إذ الواقع أنهم كانوا طائفة بقرأ وتكتب ويتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات لم يطلعوا على العلم منبغ الفعلاء في زمانهم، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكبرة ولكنهم لم يطلعوا كذلك مبلغ الأمية الجامية في لعباء وكان منهم من تسميه في عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الإصح المعروف باسمه، وقدرته على كتابة إنجيل - بالبقة لبواسطة كما هو الأرجح - قدره لا تتأتى لغبر المثقفين ومنهم بوحنا الذي يسب إليه الإنجيل الرابع، وهو ابن حالة المسيح أو من بني حووانه، وكان صاحب عمل ناحج في تحارة التسمك يشركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من إنجيل مرقس حيث يقول إنهما تركا أبهما في السفينة مع الأجراء ودهبا وراء السيد المسيح.

ومنهم حمس قرب المسيح ويؤخذ واس الرعد كما سماه المسيح لقوته في الإندار وبشديد العكبر، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب بعزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الإنجيل وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس في أمر الدعوة، وكثرهم واحه الموت في عمله لمشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة دوى اليأس والسيطن.

وقد استمالت الدعوة إليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالإنوار، وأكثر هؤلاء المثقفين ملأوا إلى الدعوة عطفاً على التلاميذ المحاهدين الذين مكنت بهم أسطورة الغاشمة، لأنهم خارجون على نظم من العقيدة والعادة بحنقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل المحاسبة الروحية في تقويضه أو الإجهاز عليه.

* * *

ومن المعاصرين من بطو له أن يحسب السيد المسيح داعياً إلى الفوضى السياسية متحلاً من النظام، لشدة إنحائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها، وفتهم أن الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي الفوضى في صورة أخرى، ومن بدحضها وينحى عنها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام.

أما البنية في الواقع على سحف هذا الحسدان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وإبكار الذات، ونفسيه للأعمال في محتمعه، التصغير - مجتمع التلاميذ - بين أمين للصندوق، ومبشر لمطالب الجماعة، ورأع يرعى الهطيح في غيبة السيد، وهم مئة قليلة لا تحوز لعشرين مع حسدان التلاميذ وغيرهم من الطارئين.

وأدخ من هذا في باب التنظيم أنه اختار أولاً ثني عشر تلميذاً ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن يطلقوا بالدعوة، ثني اثنين في كل اتجاه، وأنهم حين عادوا من رحلتهم أحدهم ناحية في أجل لاستمع منهم ويراجع أعمالهم، ويزيدهم من الوصية والإرشاد.

وقد جعل كل مناسبة الدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين، وكان يحذرهم على الدوام من الفسنة الموقفة التي سخطم عنها نظام كل جماعة وهي فتنة التدفيس على الرئاسة، فعلمهم أن الأول فيهم هو حادهم الأول، وضرب لهم مثلاً فداً في تاريخ الدعوات ليفوا جماعتهم غويه الرئاسة كلما ذكروه، فجمعهم في محفل ليمسك أقدامهم بيديه، وبقر بعضهم أول الأمر ولكنهم عدوا فتأذعوا حين علموا العبرة لتي عناها بهذه القوة وقال الذين نمرؤ أول الأمر من هذا التقليد أنهم يؤبون لو يأمرهم بأن مطبوعه في غسل الأيدي ولراءوس.

وحصر جهده كله في تعويضهم «إنكار الذات» وهو مضيفة لفضائل في الأعمال العامة، فحسبهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيفة السيوف التي يخبئونها لدعوة أهليها، ولكنه قال لهم «لا نحملوا كسباً ولا مروباً ولا أحمية . وأى بيت دخلتموه فقولوا سلاماً . وأى مدينة تخدموها وبم يقلوكم فخرجوا إلى سبطها وانصصوا عبارها من أرجلكم».

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام فأمرهم «ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم».

ولم يحف عنهم أنهم ملاقون وبلاً من الناس فليكنوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام. أما إذا جد الجسد فلا يحاف من يهلك الجسد ولحاف من يهلك الروح.

وقد أثمرت رياضة الحب في تكرب هذا الحشد الروحاني ما لا يثمره رياضة القسوة و نصراة في تدريب جنود القبا فخرجوا يعملون وهم يعملون أن الولاء في أداء الأمانة يصعبرهم أمام أنفسهم، ويصعبرهم أمام الله، وليس أقسى على نفوس من الشعور بهذا الصغار.

وما هو إلا حارس موعدهم ليعملوا وينشثروا في الأرض حتى خرجوا إلى كل وجهة وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمور، فمبهم من وصل إلى جزر الهند الشرقية كارسول توم، ومبهم من وصل إلى سكيثية وآسيا الصغرى كارسول أندراوس ومبهم من شغل بنفسه في البلاد الأوربية فأرسل صحابته إلى فريضة الشمالية، وعمت لدعوة مصر وبلاد العرب و نراق، فضلاً عن الدعة في فلسطين.

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب «الأمم» في الحبس وآسيا الصغرى والإسكندرية، وأفادهم التمهيد الذي سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب البخل السرية في تنظيم الدعوة، فعملوا كما كان يعمل الآسرون وأعداء الغبوريين، يخرجون اثنين اثنين وينشثرون الحلايا في كل بقعة، ويحفظون الصلة بين تلك الحلايا بالمراسلة والزيارة، وهذا يصح أن يقال إن الدعوة الجديدة استقادت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر انجاح الذي أصبوه ملحوظاً في آسيا الصغرى والإسكندرية حيث عرف من قبل نظام الحلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ.

كذلك يبدو أثر «الحالة العالمية» في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكرب في كل أمة. فقد كان لدعوى إلى الدين الجديد من جماهير الناس

سراعاً إلى القبول، حرصاً على المعاونة والتأييد، ولم يهبط الرسل حطر إلا من قبل «السلطة» العالية، حيث تصطبغ عبادة القياصرة بعبادة الله.

وكان أشدهم حماسةً لدينه يلجأ إلى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة إذا وجههم لصراحة بغير تقية فكان بطرس في أنطاكية يجامل الحفطيين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله بقوم من «آل يعقوب» فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاه الناس.

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة، وكان كما قال في سفر كورنثوس الأول: «... استعذت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين وصرت لليهودى كيهودى لليهود وللناموسيين كالناموسيين ولغيرهم كأنسى بغير ناموس صرت لكل كل شيء على أن أستخلص من كل حال قوماً...».

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول الناس ممن تحولوا إلى المسيحية من لوثية، وبقوا معهم بعض عاداتها وشعائرها، وشملهم لأعضاء حيناً لعهم بعد هجر لوثية يستقيمون على مناهج الذين الجدد.

ومن بدع القرن العشرين سهوة لاتهام كلما بطروا في بواربح الأقديين فوجدوا في كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقونها، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يشتون من أعاجيب العيان، أو أعاجيب النقر والرواية، ولكنك تعتقد أن التاريخ الصحيح بأى هذا الاتهام، لأنه أصعب تصديق من نقول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب ولاختلاق، فثبت أن عمل المؤمن الذي لا يبالى الحوب تصديقاً لعقيدته، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم أنه يكذب وأنه يدعو الناس إلى الأكاذيب، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدحولة وهو أوفى من يعلم ردها وحداها، وهيئات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في بشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون. فإذا كان المؤرخ الصانع من يأخذ بأقرب القولين إلى التصديق فتقرب القولين إلى التصديق هو أن الرسل لم يكذبوا فيما روه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الإنسان عياناً ما يصدقه في قرارة نفسه، ويمامة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائله وسامعيه من يحسه من المستحيل.

ولنذكر أدعياء التحييص في عصرنا هذا أننا نطيب من الرجل في القرن الأول للميلاد أن يكذب إنساناً لغير سبب وهو يضمن إليه ولا يتهمة بالتلفيق والاختلاق. ومن التكذيب لغير سبب في ذلك العصر أن صادر السامعون إلى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجرات، وذلك شبيه في عصرنا هذا بمن يكذب إنساناً لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ولا سيف إذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يعتمد الكذب والاختلاق.

من أسعف السخف أن يقال إن ديناً من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق. إن تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه إيمان كقوى الإيمان. وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل. ولكن لم يحدث قط إقبال كذلك الإقبال الجارف الذي تلقى به الناس رسل المسيحية. لأنهم تلقوهم بنفوس مفقرة معطشة. ويطروا أمامهم فرأوا قوماً مثلهم يؤمنون غير مكرئين لما يصيبهم وغير مدهمين في مقصدهم، فأنصعوا إليهم وأمنوا كإيمانهم. وبولا ثقة أنسيح عليه لسلام بهذا الإقبال ما أوصى بلاميده أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقد مهم غبار كل بلد يتلقاه بالصدود وانتفور

الباب السادس

الأناجيل

الإنجيل

الإنجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو الشارة، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد بناء الكنيسة أربع نسخ منها بالافتراع - أي بكثرة الأصوات - وهي إنجيل مرقس وإنجيل متى وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا مع طائفة من أقول لارسل المتوبة هي العهد الجديد.

ويرجع المؤرخون المختصون بهذه المناقشة أن الأناجيل جميعاً تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشعرون إليها بحرف «ك» مختلة من كلمة كويل *Quele* بمعنى الأصل، ومنهم من يسمي هذه النسخة «لوجيا» *Logia* بمعنى الأقوال ويريدون بها الأقوال الشفوية التي سمعت ثم كتبت على القول المرجح عندهم باللسان الآرامية، ويعلنون اتفاق متى ولوقا في بعض النصوص باعتمادهما معاً على تلك النسخة المفقودة.

أما الأناجيل الموحدة الآن فقد كتبت جميعاً باليونانية العامة *Koine* ولوحظ في ترجمتها أنها تعتمد على نصوص آرامية وتحفظ على ما عندها من الجاس وترد المعاني والمفردات، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحوي على ما فاده السيد المسيح، إذ جاءت في أعمال لارسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة مسبوقة إلى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل وهي «تذكروا» كلمات المسيح في العطاء معبوظ أكثر من الأخذ. وجاءت في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع إلى منتصف القرن الثاني لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها.

وتتفق الآراء أيضاً على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه، وهما نسخة مرقس التي نون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع في كتاب، وقد كتبها في روما بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ، ويترأخ كتابتها بين سبسي سبع وستين وسبعين.

والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول، نون فيها ما سمعه منه، ولعله أضاف إليها جزءاً من النسخة المفقودة ثم جزءاً من إنجيل مرقس بعد اطلاعه عليه، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين.

أما إنجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة، وأكثر النقاء على أنه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح، وآخرون يعتقدون أنها بقلم يوحنا آخر كان من أقسس ولم ير السيد المسيح . لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال في ستة ست وتسعين، ولا يضمن أن مؤلفاً واحداً يكتب في وقت واحد كتابين منهما مثل ذلك النابن في المنهج والفصوى .

على أن الأب فرار فتون مترجم الإنجيل «طبعة اكسفورد» يعن له أن إنجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل، وأنه كتبه أولاً بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله إلى اليونانية، ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا لإنجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل، وريادته هي التعبيرات الفلسفية، وبوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول، ولا يضمن أنه كتب قبل سنة ست وتسعين.

والترتيب المعصل عند المؤرخين أن إنجيل مرقس هو أقدم الأناجيل، ثم يليه إنجيل متى فإينجيل لوقا، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب، مع العلم بأنها كتبت في الأصل رسالة يغير أقسام ويغير موضع للوقت والإحاطة، ولم تقسم إلى إصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد.

وليس من الصواب أن يقال إن الأناجيل جميعاً عمدة لا يعول عليها في تاريخ السيد المسيح لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنسخ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين، كاشفاق القبور وبعث موتاهم وطوائفهم بين الناس وما شابه ذلك من الحوارق والأهول.

وأما الصواب أنها العمدة الوحيدة هي كدبة ذلك التاريخ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذلك.

فإنجيل متى مثلاً ملحوظ فيه أنه يحاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة، ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد.

وإنجيل مرقس على خلاف ملحوظ فيه أنه مخاطب «الأمم» ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل «المحافظين» والإيمان بإلهية المسيح.

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه إلى سرى كبير، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوحيه الإنسانيه، ويحصر في ذهنه ثقافه السرى الذى أهدي إليه نسخته وثقافه أمثاله من العلية.

وانجيل يوحنا علبت عليه فكرة الفلسفة وبدأء بالكلام عن « لكلمة » Logos، ووصف فيه اتجسد الإلهى على النحر الذى يئلفه اليونان ومن حضروا محاضراتهم ودرجوا معهم على عادات واحدة.

وسوء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها هى العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح، وليس لدينا نص يعد قرابة ألفى سنة عمدة بحق منها بالاعتماد.

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أسس مرجعاً أوفى منه لدرس حياة الرسول والإحاطة بأطوار الرسالة وملابسها ولكننا نتبع فى مراجعتها طريقة غير التى درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار، فلا نراجعها من حيث هى وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التى أرادها كتابها ورواتها، ولكن بجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراء من الإبانة عن شخصية الرسول، وهى هذه المراجعة ننفعنا الوقائع المستخرجة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وبهنا لأعراض المقصودة وغير المقصودة.. فهل وراء هذه الأخبار «شخصية متناسقة» مفهوم؟ إن كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة محسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار، وعلينا أن نفهم هنا أن النقائص فى هذه المراجعة قد تكون من أسباب التخصيص، ولا تكون من أسباب الشك والإنكار، ثم يأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكاً لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروه، فما خرج من السواء فهو فصول.

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها أن الغرائب هنا شئ يجب أن نبحث عنه إن لم نجده ماثلاً بين أيدينا، فإن حل هذا التاريخ من الغرائب هو الذى يستعرب وليس هو المؤلف الذى يدعو إلى الترجيح أو اليقين. وهل يحسب من لغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون فى وجودها ؟

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الفوارق والمعجزات حيث وجدت فى تواريخ الأديان، فنحن نسأل من هذه المعجزة لازمة فى تفسير مسألة من المسائل فى

كان تفسير المسألة ميسوراً بغيره، فلا حاجة بسا إلى الجدل في إمكانها أو استحالتها، لأن التفسير الذي يقبله كل إنسان يعنى عن التفسير الذي يضطرنا إلى امتحان الممكنات وامتحان الرواة.

أما رأينا نحن في إمكان المعجزات فهو رأينا في إمكان جميع الأسباب فإن العقل قاصر عن تحليل الحوادث بسببها، وليس من العقل أن يقل إن هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هي العوامل الفعالة في إيجاد الأشياء وأصبح ما يقال فيها قول الغزالي رحمه الله أن الأسباب والمسببات تحدث معاً ولا تريد علاقتها بعضها ببعض على علاقة اصحابية والتوافق في الأوقات، وإلا لزم أن تكون المادة ألوفاً من لمدات، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقول سليم هذا كمن العقل لا يعلل لأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعمل بأكار المعجزات والجزم باستحالتها.

ومتى دقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب. هل هي لازمة لتفسير هذه المسألة؟ وكما نقول هل هذا السبب لازم؟ نقول أيضاً هل هذه المعجزة لازمة لفهم والتفسير؟ وبهذا القسما يجب أن تورن الحوادث ويدرس تريح الأديان وغير الأديان.

وحس لم تتعرض للمعجزات التي وردت في الأناجيل لأن تفسير الحوادث مساو لنا بغيرها، فليس في الأناجيل أن معجزات الميلاد حملت أهداً على الإيدين بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة، وكثيراً ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقع المكابر، وأن الجيل الشرور يطلب الآلة ولا يعطها، وأن المكبرين كانوا يعجبون لما يرويه أحياناً ولكنهم كانوا يزعمون أنه من فعل الشيطان، بل كان من أسباب التنجيل بمصادرة المسيح أنه كما قال الكهنة يصنع كثيراً من المعجزات.

وبعد فمن الحق أن نقول إن معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة القارحية التي بقيت على الزمن ولم تنفخ بأفصاء أيامها في عصر الميلاد رجل بنشأ في بيت نجار في قرية خامة بين شعب مقهور، يفتح بالكلمة بولاً تضيق في أطوائها سولة الرومان ولا يقضى عليه من الزمن في إيجار هذه المفتوح ما قضاه الحيايرة في ضم إقليم واحد، قد يحضغ إلى حين ثم يتمرد ويحلج البير، ولا يحضغ كما حضغ الناس للكلمة بالقلوب والأجسام.

شرح الأناجيل

عنى الشراح الإنجيليون عناية دقيقة مصفية بتوبيخ الحوادث في مسيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل، ولكنهم لم يصلوا إلى ترتيب متفق عليه، لأن سياق الحوادث مختلف في الأناجيل الأربعة، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرص لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأرملة التي وضعت فيها لحوادث، فلم يتفق ترتيب الكسبة وترتيب الطلوع.

على أن حوادث السيرة فيها ما يظهر منه أنه مقدمات وما يظهر منه أنه نتائج لاحقة لتلك المقدمات، فإذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقولي من ثار الحوادث، أمكن على الترجيح متابعه السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التي يمكن أن تصاف إلى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه.

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان معرق الطريق في السيرة المسيحية.

ولم تذكر لنا الأناجيل من أحوار بشاة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين، إحداهما حادث السفر إلى مصر وهو رضيع، والأخرى حادث السفر إلى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره.

روي الحادث الأولى إنجيل متى فقال «إن ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم مثلاً قم واخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر. لأن هيرودس مزعم أن يطلب ناصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر، وبقي فيها إلى وفاة هيرودس» ثم قال «وقتل هيرودس جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونهما».

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير إنجيل متى، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة في بيت لحم - وهي من الناصرة - لأن الإحصاء الذي أشير إليه إنجيل لوقا وقيل إنه سبب انتقال كل أسرة إلى منبتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرأته ثورة عبيدة على عهد ولي سورية كريبوس.

أما الإنجيل الذي توسع في وصف مقولة السيد المسيح فهو إنجيل لوقا الذي روى أحداث ختانه وتسميته والسفر به إلى ميث المقدس «فلما تمت ثمانية أيام ليحتموا الصبي سمي يسوع...» وتمت أيام الظهير حسب الشريعة الموسوية «فصعدوا به إلى اورشليم ليقدموه للرب. ويقدموا ذبيحة روح بمقام أو فرخي حمام» وهي القربان المقبول من الفقراء.

قال إنجيل لوقا «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى اورشليم في عيد الفصح، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى اورشليم كعادة العيد، وبقي الصبي عند رجوعهما في اورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان. وذهبا بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجدا رجعا إلى اورشليم يطلبانه، فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعون ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصره بهشبا وقال له أمه يا بني لماذا فعلت بنا هكذا. فقال له: «لماذا كنتما تطلباني؟ ألم تعلما حيث يسكني أن أكون قيما لأني». فلم يفهما الكلام الذي قاله هما، ثم برل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا لهما وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس».

ولا يذكر الإنجيل شيئا عن بشاة الصبي بعد ذلك إلى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا المعمدان التوبة لعفرة الخطايا» وحينئذ جاء يسوع من الطل إلى الأرين ليعتمد منه - كما ورد في إنجيل متى - فمنعه يوحنا قائلا أن محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي؟ فنجابه يسوع تسمح الآن، لأنه هكذا يحمل بنا أن سنغفر كل بر فسمح له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وأب عليه وصوت من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب».

وفي إنجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة - وهي إنجيل العبريين - رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها أن أمه وأخوته قالوا له إن يوحنا المعمدان يرأى النعميد لعفران الخطايا فهل بنا إليه ليعمدنا، فقال لهم «أي خطيئة جنيت حتى أذهب إليه لتعميدي! اللهم إلا أن يكون هذا القول الذي قلت».

وليس في الأناجيل ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثالثة عشرة وبعدها ولكنه بانقيس إلى نظام اتربية في ذلك العصر يبدأ في

مكتب ملحق بالبيعة في كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها «حزان» أو «خران» بمعنى الخازن والחסار، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة ابنة امعدة للناوة منها في السنوات والاستعانة بها على نعيم التلاميذ الصغار، ومعاونهم جميعاً على الحفظ والاستظهار.

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر، وقد سمي الطفل يسوع أو «يهوشع» على هذا الأمل، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى «يها» أو «جدة يها» أو «خلاص يها» فربى الطفل تربية دينية خالصة، ولا يصعب علينا تعيل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده، لأنها تنتظر المعجزة هناك، حيث ورد في أسفار من النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود، لأنها موطن داود.

ولا بعد أن التحق المبارك وكان في الثانية عشرة من عمره، قد وعى جميع الدروس التي يتعلمها الصغار في مدارس القرى واستمع إلى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأخباره، فتأقت نفسه إلى استيعابه وبسي أهله وموعود عودتهم إلى قريتهم وهو ينتقل بين دروس الفقهاء والأخبار.

ويعلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وأن يوحنا قد رآه وعرفه وعرف مضله وطهارة سيرته قبل أن يبقاه في الأردن عندما نصدي لرسالة التعميد، وهي بطبيعتها رسالة إعداد وتمهيد.

ومن البديهي أن كلمات يوحنا مع لفتي ابن الثلاثين في ساعة التعميد لم تذهب بعير صداها في نفسه الرابعة، فمن أيسر آثارها في مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمر وتدعم فيها ليقين وتمسكها على التمسك فيما خلق له وميما ترحوه ويرجى منها من الشرائع والنذر التي تردت يومئذ في كل مكان، وعلى كل لسان.

وخلاوة ابيرية هي إحدى نتائج تلك التحية النفسية، وهي خلاوة التحرية والامتصان والنساق والاستبشاق التي عاجلها كل مني قبل أن تصدع بما أمر به، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله.

ونعتمد في وصف هذه التجربة على رواية إنجيل متى حيث يقول: «إله عليه السلام بعد أن صام في البرية أربعين ليلة جاع أخيراً فنقدم به المحرب وقال له إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا». فأجابته مكنوب أنه ليس

بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلمة تخرج من فم الله ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على حذح الهبكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من على، لأنك صاعد أن يوحى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رحلك بحجر. قال يسوع ومكتوب أيضاً ألا تجرب الرب إلهك ثم أخذه إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك لعالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها إن سجدت لي.. قال يسوع عرب عني أيها الشيطان، فإنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد..»

قال إنجيل متى بعد ذلك ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهرود انصرف إلى البطل وترك الناصرة وسكن في كفر ناحوم، وانتدأ رسالته داعياً إلى القوة، لأنه قد اقترب ملكوت السموات.

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية كما أسلفنا، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأمناً واستعداداً وأملاً، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتنعاً وعزيمة، وريته كلمات النسي النذير إلى طوبته يسر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه إلى كنه رسالته ومصدر بعثته، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها ساطة الرواية الإنجليزية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها في كتب القدامى من البشائر والمواعيد، ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذي ينظرونه أن يعم أخير وينطل العناء في طلب الأرزاق ويصبح الحزق لى لمن يطلبه كحجاره الطريق؟ ألم يكن من مواعد المسيح أن يقتل على السحاب ممولاً على أجنحة الملائكة؟ ألم يكن من مواعيدده طلب العالم بالتاج والصولجان؟.. كل تجربة من هذه التجارب كانت هي التجربة التي تساور صميراً مشعولاً بالرسالات المسيحية، وافقاً على قمة لإيمان وشفق الهاوية وفي لحظة واحدة يغرقه من هذ رسالة جسد وسلطان ومساومة على البرهين والآيات، وتعصمه من هذ رسالة روح وقداسة ويقين لا يسوم على البرهان.

أ تكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحى ببوى بالرسالة المسيحية ؟

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات لحظة لم تطرق مسامعه إلا وقد فتحت هي نفسه انصافية بعباً لتأمل والتساؤل، وأن فترة الخلو هي لزمة على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير، والاستعانة

بالصيام والتهجد على منجاة الغيب، والاستقرار على عريضة حالصة للإقدام على خطوة حاسمة يريد بها الله ويطل فيها الإبهام والإحجام.

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الإيمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الضر عن تجربة الوحدة في الفرية، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جملتها قبل، لإقدام على خطوات الحاسمة، أو يفسر لنا منهاج الإيمان بدراعى العمل في ضميره السليم.

إما إذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أصال التفكير فيه، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يحظر له أن العمل مرهون بانصر آية يستوثق بها من إرادة الله، وعندئذ يبادر إلى نيل هذا الحاضر بغير هوادة، لأن العامل الذي يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الإيمان، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الإيمان ينقل الجبل من مكانه ويحطم الشجر من منبته فمن يكون إيمانه معتمداً على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده، ويحصى حين يبدو للنفس أن الآلة منتصرة لانقضاء الخطر وضمان الأمان، فالخطر إذن أحب من النك، وكل شيء، إذن أسلم من الأمان الذي لا يأتي بضمان من البرهان.

وكما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهاً العيب من هذا الطريق... ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطاً للوقاية، ليفعل له ما يشاء، فما يحرق بعد ذلك كله هو إرادة الله.

خرج السيد المسيح من العزلة إلى الرسالة، ولم يقل لأحد إنها رسالة المسيح، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذاً يمشون برسائله ويستمدون الهداية من وحيه

وأصبحت رسالته الأولى في الجليل بصيغة مميزة وهي صيغة الرسالة القومية إلى إسرائيل، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه، فكان يؤثر المصلحة والتقية ما استطاع، حتى بلغ الكتاب أحله وإن أن يمضى في خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التي أسفل بها من العزلة إلى الدعوة بين بني إسرائيل، فهذه الخطوة الثانية هي الدعوة الإنسانية العامة وهي استخارة للحوادث واستلهاً للغيب في ميدان أوسع وأبقى، وعلى النصف التي ثبتت له في طوية ضميره وهداه إليها وحي الله، ولم يبق إلا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء.

أما الصفه، التي ثبتت له عليه السلام في طوية ضميره فقد تكررت في كلامه عن نفسه على صور شتى، فهو نور العالم وخير الحية، والكرامة الحقيقية، وهو ابن الله وابن الإنسان.

والآية الإلهية قد وردت في مواضع متعددة في كتب الأنبياء فجاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله «وأن أبناء الله رأوا بنات العاس حسنت فأتحدوا منهن زوجات» (٦ تكوين).

ورد في كلام موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل جميعاً أبناء الله حين قال لفرعون «دع ابني يخرج» ووردت بهذا المعنى في كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه «نتم أبناء الله» (تثنية ١٤) وأشير إلى الشعب كله بأنهم أبناءه (٣٢ تثنية) -- وردت كذلك غير مرة في الزمير حيث قيل «قدموا للرب يا أبناء الله» (٢٩) و«من يشبه الرب بين أبناء الله» (٨٩).

وكذلك وردت في مزمور، وجاء فيه من خطاب الشعب «أنتم أبناء الله الحي» أما في العهد الجديد فمحاطة الله باسم الأب وردت في الصلاة التي تنقذ بدعاء الله «أبانا الذي في السموات» وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ إن «أنكم واحد هو الذي في السموات» حيث تكلم عن ولادة الروح وولادة السيد، وكل ولادة للروح فهي بنوة لله.

أما ابن الإنسان فقد وردت في كتب العهد القديم باللغة الآرامية وباللغة العبرية، وهي بالآرامية «بن بر» بمعنى ابن و«بن بر» بمعنى إنسان، وهي بالعبرية «ابن آدم» وتطلق في كلتا اللغتين على الإنسان الحاضر أو على الإنسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء.

وقد وردت سبعين مرة في سفر حزقيال حيث يخاطب «يهوا» ذلك الرسول حينئذ بابن الإنسان.

وردت مرة في سفر دانيال فإسناد جبريل وهو يخاطب النبي باسم ابن الإنسان (٨).

وردت في هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بمصور الحيوانات ثم يفتي عن رسول يأتي في صورة إنسان رآه النبي في رؤى الليل «على سحاب كابن إنسان» جاء بمسطار لئلا يزول.

أما في كتب العهد الجديد فقد وردت في مواضع بمعنى «الإنسان» منها قول السيد المسيح في إنجيل متى «كل خطيئة وتجديف يعفر للناس، ومن قال كلمة

على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في العالم الآتى» (١٢).

وقد جاءت أحياناً مرادفة بضمير المتكلم «أنا» حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه، فجاء في لوقا ١٢ . «كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله» وجاء في متى ١٠ . «كل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبى الذى فى السماوات»

وورد في متى ١٦ . «إنه لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس إنى أنا ابن الإنسان؟»

وورد في مرقس ٨ . «ثم خرج يسوع وبلادته إلى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس إنى أنا؟»

فهى هى بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه، ولابد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدمها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الإنسان.

وقد وردت حساً بمعنى يشبه معانيها هى تدعى ديبال حيث قال «كما يجمع الرواى ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء لعالم، ويرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعثر ولاثمين» (متى ١٣).

وهى إشارة كإشارة ديبال إلى يوم الدينونة، وصيغتها بالآرامية واحدة هى الموضعين.

هذه هى الأسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى إيمان دعوته لأولى أو عند نهبتها، وفى أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح «حياً» فيقول «لماذا تدعوننى صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحداً، وهو الله»

وعند نهبتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه، فلما قال له بطرس إنك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان.

وغنى عن القول أن هذه الأسماء إنما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب البيانية أن يفهموها فى ذلك الحين، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون «ابن الله» أو «ابن الإنسان».

لو جرت الأمور فى محررها التى استقامت عليه الدعوة فى الحيل من بعد الرسالة المسيحية لمصب هذه الرسالة فى طريقها سنوب دور أن تشتبك فى حرب صراح مع دولة كهانة فى بيت المقدس.

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي نحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد.
وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية،
ومنها أسرهم لسيد المسيح أمه وإخوته وبو قريه

وكان عليه السلام يجارى أسرته في هذه الشعائر التي لا صير فيها، ولم يكن
يضيق على لسان في المحافظة على المآثورات التي تعربوا أن يحتفوا بها
ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهتات، وإنما كان يسكن من المآثورات ما كان
فيه حجر على الصمائر أو مفاخرة بالتقوى الكادية والبقاء المكشوف، وبما عدا
هذا كان يشارك أسرته في أفراحها لقومية ويذهب إلى الهيكل ويأمر بشراء
الغراب، ين بلمر مسدد العرضة التي كانت تفرض على كل رأس من رؤس
بنى إسرائيل.

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط أنه تحلف عنه هي إحدى
السنوات منذ نشر برسالة في الجين، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود
إلى الحليل دون أن يحس زيارتهم سدة الهيكل وذو الشأن في العاصمة
الدينية، ويؤمن أن يشتبك الفريقان في نضال.

لكن كيف يكون الذهاب إلى بيت المقدس في هذه السنة ؟

إنه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات
الماضية.

إنهم يعدون الآن بالأكوف في أحياء الجليل، وإذا قدر أن مبعاً وثعابين
مسيحياً يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعرفون منهم قد يلعبون عشرة
أضعاف هذا العدد أو يزيدون.

فكيف يذهب هؤلاء الثقات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون إليها ولا يعلنون
ولا هم للمعلم الذي يحج معهم إلى المدينة ولماذا هذا السبل وهذا الاختفاء ؟
هنا موقف من المواقف التي نسميها مواقف استلهم الغيب واستخارة
الحوادث.

يذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأناس مكرراً لرسالته حذراً من
إعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه النخفي والاستتار ؟

وماذا يقع من أثر السحى والاستتار في نفوس المؤمنين برسالة الروحانية إن
لم تقل برسالة المسيحية ؟

أبو من أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية نعم العالم في الحفاء، وتستتر
لنسب من الأسباب، فصلاً عن لسبب الذي يسبق إلى الأذهن لأول مرحلة،
وهو الحذر والانتقاء ١٥

وحب الذهاب إلى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين، ولكن
الآية الإلهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين.

وأدب شيء على أن الموقف، الأخير هي الرسالة المسيحية كان على منهاج
السيد المسيح هي أمثال هذه المواقف - موقف استخارة الحوادث - أنه عليه
السلام سهر ليلة الوداع يصلي ويتأجج ربه قائلاً «اعبر عني هذه الكأس يا
أبتاه.. كما تريد أنت لا كما أريد» ثم يقظ تلاميذه السيام وقل لهم «اسهروا
وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة أما الروح فتشيط وأما الجسد فضعيف»

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لابد أن يواجهه، وأعد أعداءه لاسبقاء
عزيمة تلاميذه فطعن يهين أذهابهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء، وصره عن
أذهابهم أنهم غرورة فتحت تجلى عن غلبة عاجبة على دولة الكهنة الديويية،
فلبوطنوا أنفسهم إذن على أسوأ ما يكون، فل لا ييأسوا إذا عندهم الضعف
فتفرقوا عنه، ولا يخامرهم لطم أنهم ان قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة
الصانع، فهذا الضعف مقدور ببعده لا محالة يصير قريب.

وتروى الأناجيل أنه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر أتان كما
جاء في بعض النسخات عن مركب المسيح الموعود، وأبهم كانوا يحملون السعف
أمامه ويقرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته، ويهتفون بهتاف النصر الذي يحفظه
اليهود منذ الطفولة، ويتعجبون به في المواكب والمحاقل لذكرى داود، وذكرى مجده
المستعاد إلى آخر الزمن.

ويهم من وصايا السيد المسيح أنه ظل في بيت المقدس يرعى للكهنة والعقهاء
مكاسهم ولا يفلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها، ففي إحدى
هذه الوصايا يقول مصطباً الجموع و لتلاميذ «على كرسي موسى جلس الكتبة
والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعماهم
لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون».

ولم تسمع منه في رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما أحبطه لنفسه في
حكيمته الماثورة عما يقصر وما لله، فكأن ما سمع منه في بيت المقدس يعيد ما
أسلفه من بيار الملكوت الذي يدعو إليه، وأنه من غير هذا العالم، ولا شأن له
بسلطان التنحان والعروش.

إلا أنه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مك من الأشرار التي ترصد له في كل خطوة، وعرف من الأسئلة التي كانت تسال عليه أن القوم متعمرون به لإهلاكه، إذ كانت هذه الأسئلة جميعاً تنزع إلى هدف واحد وهو اسبغ احه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت «الكفر» ونقض الشريعة، وكانت أجوبه كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والإحراج تستند إلى حجته وتستقيم مع عهده ورسائله وتخجل من يحاول إحراجها وتهتك ما يستره من حجب الرياء، ولا يبعد أنه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل لمؤامرة المحبوكه، لأن أحدهم وهو «يقوديموس» كان يروره ليلاً، ولعله واحد من كثيرين.

ثم حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذب، بين أناس متعمرين وأدس متحدرين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها، فاشتبك السيد المسيح وبمأسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة بدنية، فقلب عليه السلام موائد الصيرفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبمأسره الهيكل بذكرهم أنهم في بيت الله، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وضهارة إلى معارة لصوص.

وكانت هذه هي الوقعة العاصلة على ما يظهر، وربما سعى إليها السيد المسيح تقريراً للموقف على وجه من الوجوه، فامتألت اسبدور المغفرة وأنخذت من وراء الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل، وبدأ العمل على النحو الذي تفرقت فيه أقوال البقلة والرواة.

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة.

فليس للتاريخ كلمة راسخة في حجر من الأحجار التي أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش وانكابه.

ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه، وهل كان معروفاً من ديارته للهيكل أو كان مجهولاً لا يهتدى إليه بغير دليل.

وفي حادثة المحاكمة يجرى الخبر على أنه حوكم باسبل وصدر الحكم في يوم واحد ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية وإسقاط كل حكم يصدر في قصاص الدم بعد جلسة واحدة في يوم واحد، ولا ينفذ الحكم في هذه القضايا إلا إذا صدر بالإجماع.

وفي حادثة التنفيذ يجرى الخبر على أنه قد تم على الرغم من إعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه، ويقول إنجيل يوحنا إن تسليمه للتنفيذ كان في نحو الساعة السادسة، ويقول إنجيل مرقس إنها كانت الساعة الثالثة فصليبه»

وقد بحث الأستاذ ريتشارد هرباند Husband في كتابه «محاكمة المسيح» تواريخ عدد الفصح في خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين فحينئذ كان يوم خميس ستة ثلاثين، وكان يوم الجمعة سنة ثلاث وثلاثين والأخبار تحرى على أن المحاكمة والصلب حدث يوم الجمعة وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميس يوم هو السادس من شهر أبريل. أما السنوات الأخرى غير سنتي ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الإثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة إحدى وثلاثين ويوم الإثنين سنة اثنتين وثلاثين.

ومن الأخبار عن يوم النفي أن الأرض زلزلت وأن القبور تفتحت وخرج منها القديسون يمشون بين الناس

وروى مقلة الأخبار أن القبر فتح في اليوم التالي فلم توجد فيه جثة. وأن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا أنه طيف: «حسبوني واضطروا فإن الروح ليس له لحم وعظام»، «وسألتهم أعددكم هنا طعام؟ فداؤوه جزءاً من سمك مشوى وشيئاً من شهد غسل فأنشدوا وأكل» (٢٤ لوقا)

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كسالفس شابن الإبحيلي Cheyne والأستاذ هريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية في مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجو تول Tool السويدي وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فذهبوا إلى البعقة في أخبار هذه الفترة من وجهة لتاريخ وجهة الاعتقاد

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح إعماله في هذا الصدد لأنه محض نظر كبير، وهو خبر الصريح الذي يوجد في طريق «حان بار» بعاصمة كشمير ويسمونه هناك صريح النبي أو صريح عيسى، وروى تاريخ الأعظمي الذي دور قبل مائتي سنة من الصريح لنبي اسمه «عوس اصناف» ويناقش أهل كشمير عن أبائهم أنه قدم إلى هذه البلاد قبل ألفي سنة، وينقل المولوى محمد عيسى في ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربي يسمى «إكمال الدين» محفوظ من ألف سنة عن اسم «عوس اصناف» مذكور فيه وفيه قال عنه أنه رحالة ساج في بلاد كثيرة، وإن كتاب «برلام ديو شافاط» في صفحة (١١١) يذكر عن عوس اصناف أنه صاحب «بشرى» وأنهم يحفظون مثلاً من مثاله في تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزارع والنبور.

ولقد أورد الملوكي محمد على هذا التعليق في تفسير الآية الكريمة

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

(المؤمنون ٥)

وأورد تعليقاً بقرب منه في تفسير قوله تعالى

﴿ إِنِّي مُوَفِّيكُ وَرَأْفُكَ ﴾ (ل عمران ٥٥)

وغيرهما من الآيات القرآنية لتي تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام

* * *

وبعد فهذا الكتاب معصور على عرض واحد، وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية، تفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يرال هذا بغرض اعجيب مسجعاً للنوعية والتخيلة من نواح عدة فإن كتب لنا أن نوفق لربادة شيء إلى هذه النخبة النفسية، فذلك حسبي وكفى، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات إلى إثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه وقصرنا الرسالة عليه.

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت بهية السيرة المسجحة، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق أنها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ إليها، فقد كان دست الحيل آخر جيل قدمت فيه نولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية إلهية تحيط بكل من يهتدي من بني الإنسان، فلم تنقض أربعين سنة حتى تداعت ديانة الأثر العصبية ويداعي لهيكل أدنى اعتصمت به وتحسب فيه، ثم قامت للضمير الإنساني دعوة حية نبسط نورها كما نبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع، ولحكم ما ألهم داعيها أن يتسمى كما تكلم عن نفسه بآبن الإنسان.

في الختام

لوعاد المسيح

في إحدى روايات الكاتب الروسي العظيم «دستيفسكي» نطل من أنطايا
الرواية لتحيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض في طوفة عابرة وبرل بأشيلية
في إبان سطوة «المفتش» هو عظم الناس وصنع المعجزات وقيل عليه الضعاف
والمرضى والمجربون ياثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة.

وإيه ليصصى بين الشعب يصصى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكايابهم
ومخاوفهم إذ برئيس سيوان أتمتتش - المفتش الأعظم - بعبر الملكا وينأص
السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعقلوه ويودعوه
حجر السجناء في انتظار التحقيق.

ويأتى المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم إيسى
أعرفك ولا أجهلك، ولهذا حبستك لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا تعصوها وتلقى
العثرات والعقبات في سبيلنا ؟

ثم يقول له فيما يقول إنك كلفت الناس ما لبست لهم به طاقة، كلفتهم حرية
الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم، كلفتهم
أنوع المسالك فلم يطبقوا، ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم...والآن وقد
عمرق بحر دأهم وأغفيناهم من ذلك الكلف، وأعدناهم إلى الشرائع
ولشعائير، تعود إلينا لتأخذ عينا سبيبا وتمدثهم من جديد بحديث الاحتيار
وحرية الضمير ؟

ليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية، وليس أسعد منه حين يخف عنه
محملها ويبقى طائعا لمن يسلبه الحرية ويؤممه في الوقت نفسه انه قد أطلقها
له وفوض إليه الأمر في اعتقاده وعمله، فمادام تعصم الإنسان من حديد أن
يمنع عبثيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء، وهو لا يعلم ما
يشاء ؟

إنك متحتا السلطان قديما وليس لك أن تسرده، وليس في عزمنا أن نبرل
عنه، قد ع هذا الإنسان لنا و رجع من حيث أبيت، وإلا أسلمتك لهذا الإنسان
عدا، وسلصاه عنك وحاسبيك ثأناك وأحداك بمعجزاتك ولترين غدا هذا
الشعب ابنى لثم قدميت اليوم مقبلا عينا مديها لى ن نخلصه منك وأن مديك
كما ندين الضحايا من المعبين والمجربين .

قل «إيهان كراموف» بصل الرواية لنى لتحيل هذا المنتقى وهذا الحوار «إن
السيد المسيح لم يبدس بكلمه ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العدا معوس

أو ازورار، ونقدم إلى المفتش الأعظم - وهو شيخ فارس في السبعين - فتم
شغنيه وخرج إلى صلام المدينة وعاد عن الأنظار».

خلاصة ما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل ممثو بحكمه الحياه كما
برها الحكماء، من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمه المسيحية، حكمة الرسول
الكريم.

ولا نحب أن الخيال في هذا الحساب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد
ما قاله المفتش الأعظم حين أنشأ الرسول الكريم أن يسلمه من بشور عليه ويصب
عليه الويل والعضب، بعد أن أحاط به ونظم قدميه وتوسل إليه.

كلاً. إن الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وقرب شيء
إلى هبات الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يصنعوا المفتش الأعظم في نعمته
على الرسول الكريم

وأقرب شيء أن يكون - لو عاد السيد المسيح إلى الأرض - أن يذكر الكثير
مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين يعني عليهم الرياء
ويعلمهم من جديد أن ليست للإنسان وليس الإنسان ليست، وأن العبرة بما في
الضمائر لا بما تعوه به الألسن ويسو على الوحوه، وأن الوحى الصى فى طوية
الإنسان لا فى طواي الكتب والأوراق.

أقرب شيء أن يكون أن ينحى على ابنس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة،
وأن يجد إنسان اليوم كإنسان الأمس فى شروره وعداوته، وفى نفاقه وشقاقه
وهى إغراضه عن اللاب وإقبله على الفشور، وفى استعلائه باستقوى حين يتقى،
ولجاجة فى الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدى خمرأ جديدة مى رق قديم.
ذلك أقرب شيء أن يكون.

وأقرب شيء أن يقال إن طاف بالخاطر ذلك الخيال، أن يردد الإنسان قول
أبى العلاء .

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي إلى غناء اجتهد

فهم يشقى المصلحون، وفهم يهت الشهداء؟ وفهم يأتى الأنبياء ويذهبون؟ وفهم
احتلفت الديوت وأصصرع عليها المتدينون؟ فم كل هذا؟ فهم جاءهم رسول بعد
رسول؟ وفهم توالى الناعون بعدهم بإحسان أو بغير إحسان؟

جاءوا وعانوا

وانصرفوا وبلاء باق ولم يزل دائفا المياء

لأن قيل هذا ليكون أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي حانت في صوره
الخيال.

وكن الحقيقة الكبرى التي تبرز بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى
من حاسب واحد، ولا سببها الحقيقة التي تحدث على الرمز في أحوال الإنسان
منذ كان، وتحدث معه أي يكون.

ليست حربة الضمير مطلباً محدود المسافة، يرحل إليه الإنسان، ثم يصل إليه
ويقعد عنه، ويكف بعده عن كل عناء.

أي حربة الضمير جهاد دائم وعمل دائم، يتقدم فيه الإنسان شوطاً بعد
شوط أو صفة فوق صفة، ولا يفرغ من جهاده يوماً إلا ليصير بعده إلى جهاد
مستأنف ولا يورع الشر في مرحلة من مراحلها إلا ليلفه ويجاهده، وإن يلفه في
سلام

ومطالبنا المحسوسة نهدينا إلى العياس لصحيح في هذه المشكلة وهي أولى
مأن ندركها من المطالب المحيية التي تعالج بالضمير وتبعثه إلى العمل مرة حيث
يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر علا يرى غير الحجب والظلمات.

من ذا يقول إن عناء التعليم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في
الحامسة ورأه يحمله وهو في العاشرة، ورأه يحمله وهو في العشرين ثم في
الثلاثين، ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقصى على الجهل كل
القضاء.

من ذا يقول إن عناء الطب باطل إذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم
بالجراثيم وبعد افتتاحهم في الطبابة ومواقع النواء وموانع الشفاء.

من ذا يقول إن العاية عبث لأن الطريق إليها طويل، أو لأنها غاية تتلوها غاية
بلا انقطاع ولا اكتفاء؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمسها ونلمسها، فهل نقوله في غاية
كهرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الإنسان منذ كان وأنى يكون؟

ليست العبرة أن الشر واقع ولكن العبرة كيف ينظر إليه وكيف يوقعه أو كيف
يقبه.

وإذا وقع اثنان في الشر، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح إليه مستزيد منه،
كذي وقع فيه وهو مضطر إليه مادم عليه، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه

كالذي وقع فيه وهو يجهل، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين
القصد والاضطرار،

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير، وإنما يقاس ضمير
الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها، والمطالب التي يطلبها
وينالها أو لا ينالها، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الإنسان قيمة يعطيها
ويرفعون أمامه مثلاً أعلى يتسامى إليه، فهم عاملون، وعملهم لازم، ونتيجته
محقة، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الإحصاء،

وإذا قلنا يوماً: إن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه، فقد قلنا
على اليقين إنه أفضل من الإنسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه، وإن عمله غير
مطلوب وغير معروف، كما يعمل الحيوان البهيم.

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والخواطر، وبما تزيده من
نصيب الإنسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح، وقد
عملت الأديان كثيراً ولا تزال قادرة على العمل الكثير، ولكنها لن تغني الإنسان
يوماً عن جهاد الضمير.

كان جهلاء الناس فيما غير ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها
الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء.
وكان «العارفون» يقولون عن هؤلاء: إنهم جهلاء.

ولكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن ديناً من الأديان لم يعمل
عملاً، ولم يكن غير عبث من العبث، لأن الدنيا باقية فيها الشر، باقية فيها البغي،
باقية فيها الكفران.

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنياً لا تعاب وبين الجاهلين
الذين أنتظروا السعادة المطلقة في «الألفية» الموعودة آخر الزمان، بعد قرون تعد
بالعشرات أو بالمئات؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين، لأنهم
يفكرون وينتظرون «الألفية»، وقد انتظروا الجاهلون بغير تفكير!

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيراً يصنعه ويعيد صنعه، ولصنع كثيراً
بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه، ولكن الدنيا التي يصنع
فيها الهداة صنيعاً كثيراً خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة
وجهاد الضمير.

وإن يَختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له، وهو الغاية وراء كل ختام.

وسيعلم الناس في العصر الحديث - إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم - أن عقيدة الإنسان شيء لا يثبته من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتناً عليه، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه، إن احتاج إلى الإصلاح، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته. فالعقيدة مسألة الإنسان، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان، وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءاً من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ولا يعالجها كأنها بضاعة يردّها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان.

الفهرس

٢ مقدمة
٥ التجره للمباركة
٧ الباب الأول: كشف وادى القعران
٨ فى وادى القعران
١٣ تفسيرات من فلسفة لتاريخ
١٩ رد وتعقيب
٢١ الباب الثانى: المسيح فى التاريخ
٢٢ للمسيح
٢٥ النبوة بين بنى إسرائيل
٢٩ الطوائف اليهودية فى عصر الميلاد
٤١ الحالة السياسية والاجتماعية فى عصر الميلاد
٤٨ الحياة الدينية فى لعالم فى عصر الميلاد
٥٢ الحياة الفكرية فى عصر الميلاد
٦٣ الباب الثالث: تاريخ الميلاد
٦٤ لرض الجليل
٦٨ متى ولد المسيح
٧٩ صورة وصفية
٨٥ الباب الرابع: الدعوة
٨٦ دعوة المسيحية
٩١ اختيار القبلة
٩٤ محارب الدعوة
٩٨ الشريعة
١٠٤ شريعة الحب
١١١ آداب حيلة
١١٧ ملكوت السماوات
١٢٥ الباب الخامس: أدوات الدعوة
١٢٦ قدرة المعلم
١٣٤ إخلاص التلاميذ
١٤٣ الباب السادس: الأناجيل
١٤٤ الإنجيل
١٤٨ شراح الأناجيل
١٦١ قسم المختص: لوهاد المسيح

مؤلفات عماد الدين الأديب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

- | | | |
|---|--------------------------------------|--|
| ١ - الله . | ٢٧ - سورة . | ٥٢ - وميت (الجزء الأول) . |
| ٢ - إبراهيم أبو الأبرياء . | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية . | ٥٣ - وميتات (الجزء الثاني) . |
| ٣ - مطامع النور أو طوابع البحث المحمدية . | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين . | ٥٤ - عالم السدود والقيود . |
| ٤ - حبقية محمد ﷺ . | ٣٠ - مليلان عن الإسلام . | ٥٥ - مع عامل الحزيرة لعربية . |
| ٥ - حبقية عمر . | ٣١ - حقائق الإسلام والميلاد بحسبه . | ٥٦ - موافق وقضايا في الأدب والفلسفة . |
| ٦ - حبقية الإمام علي بن أبي طالب . | ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية . | ٥٧ - ميسلات في اللغز الأدبية والاجتماعية . |
| ٧ - حبقية خالد . | ٣٣ - الفلسفة القرآنية . | ٥٨ - آراء في الأدب والفنون . |
| ٨ - حياة المسيح . | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام . | ٥٩ - بحوث في اللغة والأدب . |
| ٩ - ذو النورين عثمان بن عفان . | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوربية . | ٦٠ - نوايل في الفن والفلسفة . |
| ١٠ - عمرو بن العاص . | ٣٦ - الثقافة العربية . | ٦١ - فنون وشجون . |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان . | ٣٧ - اللغة الشاعرة . | ٦٢ - قيم ومعايير . |
| ١٢ - داهي اسماء بلال بن رباح . | ٣٨ - شعراء مصر ويثنتهم . | ٦٣ - الدعوات في الأدب والتفكير . |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي . | ٣٩ - لثبات مجتمعات في اللغة والأدب . | ٦٤ - حياة الفهم . |
| ١٤ - لائمة الزهراء والفاطميون . | ٤٠ - حياة فلم . | ٦٥ - ردود وحلود . |
| ١٥ - هذه الشجرة . | ٤١ - خلاصة النبوية والفكر . | ٦٦ - ديوان يقطعة الصباح . |
| ١٦ - إيليس . | ٤٢ - مذبح نوى العاهات . | ٦٧ - ديوان وضع نظيرة . |
| ١٧ - جحا الصاحبات المفسحات . | ٤٣ - شيوخية ولا استعمار . | ٦٨ - ديوان تشيخ الأصيل . |
| ١٨ - أبو نواس . | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية . | ٦٩ - ديوان وحى الأرحمن . |
| ١٩ - الإنسان في القرن . | ٤٥ - الصيرورة العقلية . | ٧٠ - ديوان هدية الكروان . |
| ٢٠ - المرأة في القرن . | ٤٦ - أسوان . | ٧١ - ديوان حابر صيل . |
| ٢١ - عبقري الإصلاح وتعليم الإمام محمد عبد . | ٤٧ - أنا . | ٧٢ - ديوان أحاسير مغرب . |
| ٢٢ - سماء وعلوك زعيم الثورة . | ٤٨ - حبقية تصديق . | ٧٣ - ديوان بعد الأحاسير . |
| ٢٣ - روح عظيم الماهات غايدى . | ٤٩ - لصدقة بنت الصديق . | ٧٤ - ديوان حرائر وشياطين . |
| ٢٤ - عبدالمحسن الكواكبي . | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية . | ٧٥ - ديوان أشجان الليل . |
| ٢٥ - رجعة أبي لعل . | ٥١ - مجمع الأحياء . | ٧٦ - ديوان من دواوين . |
| ٢٦ - رجاء حرقهم . | ٥٢ - الحكم الملائكى . | ٧٧ - حلو في اللؤلؤ . |
| | | ٨٠ - الميون الشعوب . |
| | | ٨١ - القرن العشرين ما كان وما سيكون . |
| | | ٨٢ - المازنة والأجيان . |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

ونتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

